بسم الله الرحمن الرحيم

واعبد ربك حتى يأتيك اليقين

# كتاب اليقين

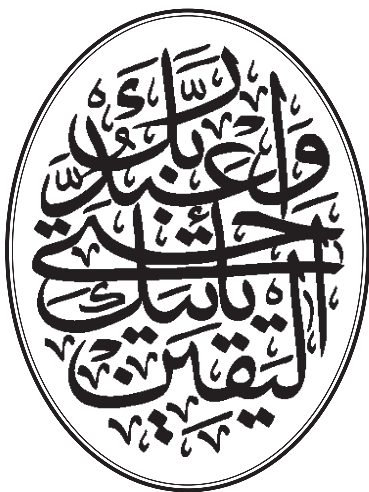
للشيخ أبو بكر سراج الدين

MABDA مبدأ




السلسلة العربية – الكتاب ٢٨

بسم الله الرحمن الرحيم




الحجر ۱۵: ۹۹

١. ورد القرآن اليومي ٢٠٠٨
٢. الكتاب الجامع لفضائل القرآن الكريم: الأحاديث التي وردت في فضائل السور والآيات ٢٠٠٩
٣. الكتاب الأربعين في رحمة الدين ٢٠٠٩
٤. بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب ٢٠٠٩
٥. الحقيقة والمعرفة ٢٠٠٩
٦. تعداد الضحايا ٢٠١٠
٧. القرآن الكريم والبيئة ٢٠١٠
٨. الخطاب الموجه إلى صاحب القداسة البابا بنديكتوس السادس عشر ٢٠١٠
٩. حِنّا ٢٠١١
١٠. العرف العاطر في معرفة الخواطر وغيرها من الجواهر ٢٠١١
١١. كتاب فضائل الذكر ٢٠١١
١٢. العقل والعقلانية في القرآن ٢٠١٢
١٣. مفهوم الإيمان في الإسلام ٢٠١٢
١٤. كتاب الإعلام بمناقب الإسلام ٢٠١٢
١٥. الخطاب الموجه إلى رابطة العلماء الأردنيين ٢٠١٢
١٦. حول مطالبة إسرائيل بالاعتراف بـــ" الدولة اليهودية " ٢٠١٢
١٧. لماذا يجب أن نزور المسجد الأقصى المبارك ٢٠١٢
١٨. القرآن والقِتال ٢٠١٢
١٩. ذكر الله في التعليم ٢٠١٢
٢٠. الدرر من كلام أهل الوبر ٢٠١٣
٢١. خمسة متون في القراءات والتجويد ٢٠١٣
٢٢. متن ابن عاشر وشرح المراكشي عليه وقرة الأبصار في سيرة المشفع المختار ٢٠١٣
٢٣. ثمانية متون في العقيدة والتوحيد ٢٠١٣
٢٤. ذكر اسم الله ٢٠١٣
٢٥. متن وشرح «طيبة النشر في القراءات العشر» ٢٠١٣
٢٦. عشرون عاما من المبادرات الدينية تصدر من المملكة الأردنية الهاشمية بجهود صاحب السمو الملكي الأمير غازي بن محمد بن طلال و أصدقاء كثيرين «١٩٩٣-٢٠١٣» ٢٠١٣
٢٧. متن أبي شُجاع المسمّى «الغاية والتّقريب» و«نهاية التدريب في نظم غاية التقريب» ٢٠١٣
٢٨. كتاب اليقين ٢٠١٣

# كتاب اليقين

## للشيخ أبو بكر سراج الدين

## The Book of Certainty

## Martin Lings

ترجمة: عمر نور الدين

٢٠١٣م

٢٨

MaBDA



السلسلة العربية - الكتاب ٢٨

السلسلة العربية – الكتاب ٢٨
كتاب اليقين
ISBN: 978-9957-8684-2-0

© ٢٠١٣ وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
عمان / الأردن
www.rissc.jo

تنضيد: آمنة صالح

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية: (٢٧٦٧/ ٧/ ٢٠١٣)




# المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

## مُقدّمة

ربما احتاج هذا الكتاب الصَّغير إلى شيء من التّفسير للقُرَّاء الغربيِّين، فَلَمْ يكن مكتوباً لهم رغم أنه بالإنجليزيّة، وقد كُتِبَ بناءً على طلب صديقَيْن مصريَّيْن، ومن ثم تُرجم إلى العربيَّة دون أن يَخْطُر لنا أنه سوف يُطبع ككتاب بأيّة لغة أوروبيّة.

وقد كانت غايَتنا منه التّعبير بلغة الصُّوفيّة عن بعض الحقائق الكليّة التي تكمن في قلب الأديان جميعاً، ويتَّجه كلّ باب منه إلى تفسير آية من آيِ الذِّكر الحكيم، كما يرجع إلى أحاديث الرّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وينهل كذلك من تفسير الشّيخ الأكبر محيي الدّين بن عربي[1]، وسوف يلحظ القاريء فيما تعلّق بالأقوال الأخرى أنها مسبوقة بكلمة «قيل» أو «قالوا» بمعناها الحرفيّ، ولا بد من التّسليم بأن التّصَوُّف تراث حيّ لا زال معظمه شفاهيّاً ولا مرجع له، وقد توارث تلك الحقائق الكليّة مريد عن شيخ عبرَ أجيال، ولم يكن هذا الكتاب ليُكتَبَ دون هذا التراث الحَيّ.

والغاية من هذا الكتاب إذن إيجابيّة نظراً لأنه يؤكِّد على الحَقائق الكليّة ويتجاوز عن إنكار الضّلالات، ولكن سوف نذكر هنا أن مصطلحات

(١) وقد نشره البابي الحلبي في القاهرة باسم الشيخ الأكبر، وعزاه البعض إلى القاشاني تابعه وشارحه العظيم، أما ما تردد من شكوك حول تأليفه فقد أشرنا إليه في سياق الكتاب باسم "التفسير the commentary".

الصوفيَّة ليست سوى إنكاراً لمفاهيم زائفة، مثل أن من قُدِّرَ له أن يفهم هذا الكتاب سوف يرى أن الإسلام بدون هذه الحقائق سوف يكون مثل قشرة بلا لُب أو محيط بلا مركز، وأن الصّوفي الأوَّل كان الرَّسول عليه الصّلاة والسّلام، وأن الصّوفيَّة قديمة قِدَمَ الإسلام ذاته. وبغض النّظر عن دعوى البعض بأن الصّوفيَّة المتأخِّرة ليست شائعة بين جمهرة المؤمنين بقدر شيوعها في زمن الرَّسول عليه الصّلاة والسّلام، فذلك أمر يصدق في كلّ الأديان.

وقد ذكرنا أن الكتاب الحكيم يُقَسِّمُ المؤمنين بين «السّابقين» و«أصحاب الشّريعة» أو «أهل الرّسوم»، ويقوم التّصوُّف على مذهب «السّابقين» ومنهاجهم، ويُسمّونه «الطّريقة»، ويطلقون الاسم ذاته على الأُخوَّة الصّوفيَّه[٢]، وليست رياضات الطّريقة إلاَّ نافلة على فرائض «الشّريعة» التي تُلزِمُ المؤمنين كافّة ولا تُغني عنها، فالجوانيّة تقوم على البرانيّة، ويصبح النُّكوص عن فرائض الشّريعة بمثابة مانع من الالتحاق بأيّة طريقة صوفيَّة.

ويؤكِّدُ آيُ الذِّكر الحَكيم على تعالي الله عَزَّ وجَلَّ وحضوره في آن على عادة متون الأديان الاتباعية orthodox religions ، وحيث إن الكُتَّابَ الصّوفيِّين يرون الطّريقة سَبِيلاً إلى الله تعالى ويَمِيلونَ إلى الإسْهَاب حَوْل

(٢) ولا يعني ذلك أن كل عضوٍ في كل أُخوَّةٍ صوفية من "السابقين"، فلا يبلغ المرء مقامهم إلا باتباع طريقة صوفية ناهيك عن السلوك فيها، ولكن معظم الصوفيين في أيامنا هذه لا يتبعون طريقة بتمامها، ولكنهم يتمسكون بحالهم دون أن يسافروا فيها مع السالكين travelers، ولا ينطبق معنى كلمة "صوفي" بتمامه على مريد إلا إذا وصل إلى نهاية غايته.

«الحُضُـور الرّبَّاني» كما تسـفر عنه أسـماؤه الحسـنى «القَريب» و«السَّـمِيع» و«البَّصِير» جَلَّ جَلَاله، ولِذَا نَعَتَ البعض التّصوُّف بالشِّرك pantheism. وليـس هذا النّحو إلّا ضَلَالاً على شـاكلة ما دفع به هنديٌّ أحمر التُّهْمَة ذاتها بقولـه «إنّـه لا يتصوَّر قَطّ أنَّ الرَّبّ في العـالم، لكنه يعرف أن العالم في الرَّبّ بشكل غامض»[٣].

ويذكر الكتاب الحكيم «الأوَّلين» الصّالحين من عصور سـابقة، وأنه لم يَعُـد في «الآخرين» إلّا «قليلاً من الأوَّلـين»، وقد يبدو نشر كتابٍ في زماننا عـن التّصَوُّف في ضـوء هذه الحِكَمُ أمـراً خارجاً عن المألـوف، فقد أصبح كلّ شيء في العـالم الحديث شـاذّاً من كل نواحيه، وقـد وقع معظم المؤمنين من كافَّة الأديان في الشَّـك نظراً لاحتياجهـم إلى إرضاء عقولهم الجدليَّة في دينهـم، ونحـن نأمـل إذن في طـرح فكـرة أو فكرتين قد يكـون فيهما طرحٌ لجوهر البَصيرة في كلّ أشكال الوحي.

أبو بكر سراج الدين

(٣) راجع الشيخ عيسى نور الدين Apercu sur la Tradition des Indiens de l'Amérique Nord, Etude Traditionelles (Chacornac), 1949, p.164. راجع أيضا الشيخ إبراهيم عز الدين Du Soufism (P. Derain), pp.17-20.

# الباب الأول

# حق اليقين

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل، ٢٧ : ٧]

إنَّ لكلّ مَذْهَبٍ صُوفِي مرجعيَّة إلى ثلاث درجاتٍ من الإيمان بالله الواحد الحَقّ سبحانه، وتُسمَّى هذه المرجعيّة «عِلْم اليَقِين» و«عَيْن اليَقِين» و«حَقّ اليَقِين». ويَتَجَلَّى الاختلاف بينها لو اتَّخَذنا رمز النّار مَثَلاً للمَوْلَى عَزَّ وجَلَّ، فأدنى درجات العِلْم بها هو العِلْم بصفات النّار لفظاً، وتعلوها درجة شهودها بِعَيْن اليَقِين عياناً، وتَعلو هذه درجة معرفة من احترق بها فِعلاً بياناً، وهي مرتبة «الإنسان الكامل» الَّذي يُسَمَّى «الصّوفي» على وجه الدِّقَّة. وهي أمر لا يُعَدُّ مرتبة بحال، فليست إلَّا حال وحدانيّة اللَّامتناهية جَلَّ جلاله، والتي تحرق حقيقتها كلّ ما عداها، ولذا قيل إن «الصّوفيُّ لم يُخلق»، ذلك أن الحَقّ ذاته جَلَّ وعَلَا لم يُخْلَق، وقد أحرَقَ سبحانه في الصوفيِّ كلّ ما خُلِق، ولم يبقي على شيء إلَّا ذاته جَلّ شأنه. ويفصح عن هذا التّماهي مع الهويّة الكليّة في الحديث القدسي[٤] ...وما يزال عبدي يَتَقرَّبُ إليَّ بالنّوافل حتى أحِبّه، فإذا أحبَبْته كنت سَمعه الَّذي يَسْمَع به وبَصَره الَّذي يُبْصِر به ويَده التي يبطش بها...، كما يفصح عنه الحديث القُدسيّ أنا أحمدٌ

---

(٤) ولا بد من التمييز بين "الحديث القدسي" و"الحديث الشريف"، فالله تعالى يتحدث بذاته مباشرة إلى الرسول بأسلوب المتكلم في الأول، ويتحدث الرسول بأسلوب المتكلم كفردٍ إنساني إلى الناس في الثاني.

بلا ميم، وأنا عرب بلا عين، من رآني فقد رأى الحَقّ.

وحـرف الميـم في العربيّة هو حرف المَـوْت أي النِّهاية وحرف العين بها هو حرف الخَلق أي البداية، وينطوي «حَقّ اليَقِين» على كلّ ما يولد ليموت وكل مـا يبدأ لينتهي وكل ما يُخلقُ ليفنى، ولن يبقَ إلَّا ما لم يولد وما لم يُخلق وما لم يبدأ، أي الأحد جَلَّ جَلَاله، فلن يبق سـوى الرّوح الحَقَّة التي بَدَأت في الوحدانيَّـة وفنيـت فيهـا، والتـي تناظر «أحمـد العرب» التي ليسـت إلا مظهـراً فحسـب، وأن الرّوح الحَقَّة ليسـت غير الله تبارك وتعـالى، وهو ما يُفْصِح عنه حديث شريف للرّسول عليه الصّلاة والسَّلام «من عرف نفسه فقد عرف رَبَّه».

ولا يبقـى مـن «الإنسـان الكامـل» سـوى الـرّوح بعـد أن احترقت الحُجُـب في لهيب الحَقّ، وقد ذكـر الكتاب الحكيم آية ﴿...لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ...﴾ [البقرة، ٢: ٢٨٥]، إذ إنهم عليهم السَّلام جميعاً ليسوا في حَقّ اليَقِين سوى الرّوح، والرّوح واحد لا تمايز فيه، ولم يكن الأمر للملائكة بالسُّجود للإنسان الكامل إلَّا لهذه الرّوح(٥).

وليسـت وحدانيّة الرّوح مثل وحدةٍ بين كثرة بـل هي عين اليَقِين التي تحـرق الازدواجيّـات جميعـاً، ولا يُضَـافُ إليها لتزيـد عدداً فهـي لانهائيّة أصلاً، وتُسَـمَّى هـذه «الأحدية» اللانهائيّة أحياناً «هُـوَ» أو «الذَّات»، ولذا كانـت «جنَّة الذّات» أعلى الفَرَادِيس، أو قُلْ إنَّ «حَقّ اليَقِين» هو الفِردوس بـما هـو، ولن يدخلـه شيء مخلـوق حيـث إنّ كلّ شيء فيه خالدٌ بـاقٍ، ولو

(٥) ومن قبيل الأدب في الإسلام ألا تُذكر أسماء الأنبياء غير ملحوقة بدعاء "عليه السلام"، ولكننا لجأنا هنا إلى المواضعات الأوروبية بلا حماس حتى لا نثير إحساساً بغرابة غير لازمة.

قلنـا إن أحـداً قـد دَخَـلَ جَنّة الـذّات فإنما نعنـي أن ذاته قد احترقـت تماماً فتحَوَّلَـت مـن شيء إلى لاشيء، فَجَنَّة الـذَّات تمتنع على الأشـياء جميعاً ولا يدخلها إلَّا مَنْ تَطَهَّرَ مِنْ شَـيْئِيَّتِه، وتُسَمَّى معرفة النّفس هذه «فقراً»، وهو مـا عَبَّر عنه عيسـى عليه السّـلام في آيـة «إن مرورَ جَمَلٍ من ثقـبِ إبرةٍ أيسرُ مـن أن يدخـلَ غنيٌّ إلى ملكـوتِ الله» (متى ١٩\٢٤)، ونجـد للفقر معنى آخر في كلمات القرآن ﴿...لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ...﴾ [البقرة، ٢: ٢٨٥]، باعتبار أن المقصود هنا ليس الذّات العليّةِ بل ذوات الرّسل، ورغم أن القرآن الحكيم قـد قال ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ [الإسراء، ١٧: ٥٥]، فالتفضيـل في الأيـة الكريمـة يعود إلى ما دنى عـن جَنَّة الذّات من أحـوال، أمّـا في جَنَّة الذّات فلا تَفاضل ولا تفرقة في حـضرة الحَقّ، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر، ٣٥: ١٥]، وهذه التّسوية في «الفَقْـر» تجعل النّبيِّين عليهم السّـلام في أعلى مَقـام، فهم الأغنى بفضل لاشَيْئِيَّتهم وفَقْرِهم لا بفضل ثَرائهم الدُّنيَوي والأُخْرَوِي، إنَّ هذا الفَقْر هو مفتاح ثَراء الحَقّ اللّانهائي، وحيث إن الكائن قد فنى تماماً في الحَقّ فلا يجوز قول إنه قد امتلك ثروات الجنان، فالحَقّ إنه لم يفقدها أصلاً.

وتحجـب الصِّفَاتُ[٦] الكائن عن الذّاتِ قبل الفَناء، أى إنها تَفْصِل بين التّعَدُّد والوحدة، وحين يفنى تحجبه الذّات عن الصِّفات، أمّا في جَنّة الخُلد بعد الفَناء فلا تحجبه الذّات عن الصِّفَات ولا تمنعه الصِّفَات عن الذّات، إلَّا أن الصِّفَـات هي الذّات، وسِرّ الأَسْرَار هـو اللهُ الواحد الغَنِيّ الحَمِيد الَّذي ينطـوي على الذّات والصِّفَات في وحدة لا تَنْفَصِم. ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ

(٦) مثل صفات الرحمة والجلال والجمال والقدرة.

**الصَّمَدُ** ﴿٢﴾، [الإخلاص، ١١٢: ١-٢]، وحتى لا يتسَبَّب قصور فَهم الإنسان في تصوُّر أن كُنوز السّماء سوف تَفِيض في عَالَمِ الثّنويات فإنَّ الاسم الأعظم قد احتمى بتوكيدَيْن على وحدانيَّته، أوَّلهما اسـم الإشارة «هُوَ» الَّذي انبتَّ عن تمايز الصِّفَات جميعاً، ثم اسم «الصَّمَدُ» الَّذي لا يعوزه شيء في رضوانه.

إن الحـقَّ واحـد، ولا تعنـي وحدانيّتـه للمؤمـن خسرانـاً إذ إنه كذلك الرَّحمـن الكريـم، وكلّ ما فنى منه في المحو سيسـتعيده بكمالـه ولانهائيَّته في الرّضـوان بمقـدار حقيقيّة روحه، وسـوف تتوحَّـد الكائنـات المختلفة في الفَنـاء كما تتوحَّـد الألوان جميعاً في نـور أبيض، والبَيـاض ينطوي على كلّ الألـوان الحَقّـة التي تتمايـز في كامل جمالهـا لتعكس بهاء الحقيقـة السرمديّة متجليّاً في السّديم الأبيض بأكثر مما كان يبدو عليها في أوهام النّفس، فليس هناك ثنويّة ولا غيريّة.

والفِرْدَوس هو اسـم جَنّة الذّات في حدود أنّها جَنّته هُوَ تَبارك وتعالى، يُخَلّـدُ فيهـا الأحِبَاءَ[٧] بعـد فنائهم، وهو مقـام المقرَّبـين إلى الله جَلَّ جَلاله، وهـو مقام التّمكين، ويُقال عنهـم وَصْف «المُقَرَّبِين» حتّى لا يعنى تَعَدُّدهم للأوصـاف تعـدُّداً في الـذّات العليّـة، ومزاجهم من تسـنيم[٨]، وهو اسـم يعبِّـــر عن عُلُوّ المقـام وليس إلا اختصاراً يحبل بالمعاني مثله مثل «المُقَرَّبين» الَّذيـن منـه يشربون، ويقاس القُرب مـن الله عَزَّ وجَلَّ بقربه من الإنسـان،

---

(٧) وهم من ينطبق عليهم الحديث القدسى ... ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها.

(٨) والحديث عن الجنان والعيون والفراديس وأنهارها وحورياتها حديث حق، ولو تحدثنا عن الدنيا والثراء والجوارى والنعم لكان حديثا مخصوصاً، فحقائق الفردوس هى الحقيقة المطلقة وما نعيش دنيانا إلا في حقائق ظلالها النسبية النائية.

﴿... وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. [ق، ٥٠: ١٦].

ويجـري نهر الكوثـر في جنان الفِرْدَوس، ويقـول البعض إن منبعه عين تَسـنيم حيـث إنَّ كليهـما يَتَضَوَّع بالمِسْـك، وهو نهر رضـوان القُدُّوس جَلّ وَعَـلَا، وقد قال عنه رسـول الله ﷺ إنَّ مَنْ شَرِبَ مِنـهُ شُرْبَةً لَنْ يَظْمَأ بعدها أبَداً.

إن الله ثابـت ولا يتجـزأ وهو الحـقّ الذي تكُفّ إلى جانبـه كل الحقائق الأخرى عن الوجود. ومن هذه الحقائق النسبية: الشريعة؛ ويقال إنه يمكن التعبير عن هذه الحقيقة بهذه الكلمات: «أنا وأنت»؛ أما حقيقة الطريقة، أي الطريـق المباشر للعودة إلى الله فيمكـن التعبير عنها بهذه الكلمات: «أنا أنت وأنت أنا». ولكن الحقيقة نفسها هي: «لا أنا ولا أنت، هو».

ويتحقَّـق الإنسـان الكامـل بالحَقّ ويُـدرِك إنه لاشيء أمـام وجهه جَلَّ وعَـلَا، لكنـه كلّ شيء في الآن ذاتـه، إلَّا أنَّ تحقيـق ذلـك واقعيّـاً يخرج عن حـدود طاقـة النّفس الإنسـانيّة، وهذا مغزى عبـارة «العَبْد يبقـى عَبداً»[٩] فـلا يملـك العَبْدُ أن يصبح ربّاً، فهو إمّا أن يكون عَبْداً أو لم يكن شـيئاً، كما لا يملـك الإنسـان الكامل أن يجعل من نفسـه الإنسـانيّة ربّاً شـأن كلّ من يَدَّعون من أنفسـهم أربابـاً، ولكنه يختلف تمامـاً عنهم نوعيّاً بإدراك حقيقة وهم الوجود بلا رَبّ، ويختلف عنهم كذلك لا من حيث النّوع فحسب بل بما يمكن أن يُسَـمَّى وعياً عضويـّاً بأنّ هـذا الوجود المنفصل ليس إلا وهماً عـلى الحقيقة، ويقال إن محمداً بـشرٌ لا كالبشرِ بل هو كالياقوتِ بين الحجرِ،

(٩) "الشريعة هي أنا وأنت، والطريقة هي أنا أنت وأنت أنا، والحقيقة لا أنا ولا أنت بل هو".

ورغـم أن «العَبْد يبقـى عَبْداً» مثلما يبقى اللَّيل ليلاً حتـى ينقضي في النّهار، إلَّا أنَّ نفس الإنسـان الكامل لا تملك أن تعرف «حَقّ اليقين» بشكل مباشر شأن غيرها من النّفوس، ولكن نور شمس روح الحَقّ ينير مركز ذاته، فهذه النّفس الكاملة التي يسمِّيها الإسلام «النّفس النبويَّة» ليست إلَّا ليلة القَدْر التـي ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا...﴾، [القدر، ٩٧: ٤]، ويصبح القَلْب الّذي هو محلُّ تماس الشُّـعاع السّماوي كالبَدر في سَـماء ليل صفو النّفس الكاملة، فتجعل اللَّيلة ﴿...خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، [القـدر، ٩٧: ٣]، أي إنّها لا قرين لها بين الأنفـس الأخـرى، وتنظـر النّفس من ذلك البَدر إلى شـمس الـرّوح بعَيْن اليَقِين، ويُسـبِغُ حضورها على النّفس سلاماً ﴿...حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، [القدر، ٩٧: ٥]، وعندما يتلاشـى اللّيل تفنى النّفس في نور الحقيقة التي لا تترك إلَّا سلام الوحدانيّة.

ورغـم أن وجـود أي كمال كان أو حتـى أي شيء كان ما عدا الرَّبّ هو وهـمٌ فحسـب إلَّا أنَّ ما ينطـوي عليه العـالم المخلوق من كـمالات تصلح كإشـاراتٍ وحوافز لمن لم يصل إلى مقام الحَقّ، فهي صورٌ شـاحبة من كماله عَزَّ وجَلَّ. والكمال الإنسـاني ذاته من أسـمى الصور التي يسهل فهمها على مـن لا زال يعيـش في الدُّنيـا، زد على ذلك أن هذا الكَمال ليس على شـاكلة الكَمالات الأرضيّة ولكنه حال السّالك الَّذي لا بُدّ أن يسير في طريق الحَقّ، ولـذا طَرَحَتْ كلّ الأديان صوراً للكَمال الإنسـاني علامة على نهاية المرحلة الأولى مـن الطريـق، مثـل أن يقول المـرء لرجل عاش في الظّـلام طويلاً أن ينظر إلى القَمَر، ويعلم أن الشّـمس في أوَّل الأمر سـوف تعشـى بصره ولا ترشـده، فكذلك الإنسـان الكامل الَّذي وصل إلى نهاية طريقه له طبيعتان

كاملتـان هما الطّبيعة الإنسـانيَّة أو النّاسـوت، وهو مجرَّد انعـكاس للطّبيعة الرَّبّانيّـة أو اللّاهـوت الَّـذي ليـس هو بشـيء بجانبه على الحقيقـة رغم أن السّـالك يراه قريباً سهلاً، ويمكن أن نسـمِّيهما «الطَّبيعة الكاملة الصُّغرى» و«الطَّبيعـة الكاملـة الكـبرى»[١٠]، وتناظـر الأولى «أحمد العـرب» وتناظر الثانية الإله الواحد. وتقف الطَّبيعة الإنسـانيَّة حائلاً بين السّالك والطَّبيعة الرَّبّانيَّـة بمعنـى أنّه لا بُـدّ أن يصل إلى الأولى قبل أن يرتقـي إلى الثّانية، وفي ذلك تفسير لمقولة «لن يلق الله من لم يلقَ النبي».

ويُصَوِّر خاتم سليمان الطَّبيعتين معاً حيث يمثِّل المُثلَّث المعتدل الطَّبيعة الرَّبّانيَّـة ويمثِّل المُثلَّث المَقلوب الطَّبيعة الإنسـانيَّة. وقد كان لذلك وسـيطاً بين السَّـماء والأرض، ولذا أطلق عليه اسـم «البَرْزَخ»[١١] كما جاء في الذِّكر الحَكيم ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان، ٢٥: ٥٣]، ولا يلتقي البحر السّـماوي الفُـرات بالبحـر الدُّنْيَـوي الأُجَـاج إلّا في القَلـب، ولـذا كانـت الطَّبيعـة الإنسـانيَّة ذاتهـا أشرف مِنْ كلّ الطَّبائِـع الأَرضيَّة كما جاء في سـورة التِّين ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين، ٩٥: ٤]. وحضور الإنسان الكامل يجعـل بين السّـماء والأرض تقارباً حتـى إن نواميـس الأرض ذاتها تتعطَّل بشـكل ملحـوظ مثلما يشـحب القمر في نـور النّهار، وعادة مـا تكون هذه

---

(١٠) وقد عبر عنهما الشيخ كتابةً هكذا the perfect self and the Perfect Self على عادة اللغات الغربية، ورأينا جواز استخدام لفظتا "الصغرى والكبرى" أسوة باصطلاحي "الكون الأصغر والكون الأكبر". المترجم.

(١١) والبرزخ الذي له المعنى الرمزي ذاته في الكاثوليكية الأولى هو الحبر الأعظم الذي أُطلق عليه "باني الجسور" بين السماء والأرض.

اللَّحظـات حبلى بالمعجزات مثل تحوُّل الماء إلى خَمْـر، أو الخطوة التي تنطبع عـلى الحجر ولا تترك أثراً عـلى الرِّمال، وتتجلَّى وظيفتـه المركزيّة كذلك في رمز الصّليب(١٢)، ففي حين يمثِّل الخَطّ الرَّأسي تَسـاميه يمثِّل الخَطّ الأفقي كمال طبيعته الأرضيَّة، فهو كوعاء تملؤه البَرَكَة الرَّبّانيَّة، كما يمثِّل قرنا الثّور رمزاً لجلاله، وواجبه نشر البَرَكَةِ في الكون بأجمعه.

﴿ تَبَـارَكَ الَّذِي نَـزَّلَ الْفُرْقَـانَ عَـلَىٰ عَبْـدِهِ لِيَكُـونَ لِلْعَالَمِـينَ نَذِيـراً ﴾

[الفرقان، ٢٥:١]

(١٢) وقد قال الشيخ عبد الرحمن عليش الكبير "لو كان الصليب عند المسيحيين رمزٌ فإنه عند المسلمين مذهبٌ"، وقد اقتبسها عنه الشيخ عبد الواحد يحيى في كتابه "رمزية الصليب"، حاشية على الباب الثالث، تراث واحد، قيد الطبع.

# الباب الثانى
# جَنّة الروح

﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ۝٦٢ فِيهِمَا عَيۡنَانِ نَضَّاخَتَانِ ۝٦٦ فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ ۝٦٨﴾

[الرحمن، ٥٥: ٤٦، ٦٢، ٦٦، ٦٨]

يقال إنّ في الكَمال الرَّبّانيّ طباقاً لا تُحصى بين مقام الكَمال الإنساني ومقام الكَمال الرَّبّاني، ولذا يُشَار إليها بعددٍ رمزيٍّ على شاكلة عدد السّماوات الَّتي تناظرها إجمالاً، وبصرف النّظر عن اعتبار الإنسان الكامل في الحَقّ الأسْمَى يمكن اعتباره أيضاً من حيث سعته في أحد هذه المقامات، وعلى سبيل المثال حينما أُسْرِىَ بمحمَّد عليه الصَّلاة والسّلام من مَكَّة إلى القُدْس ومن ثم إلى العَرش الأسنى في حضرة الله جَلَّ جلاله قابَل في طريقه نبيّاً في كلٍّ من السَّماوات السَّبع، ولا يعنى ذلك أن كلّاً منهم لم يتجاوز السَّماء الَّتي شُوهِدَ بها، لكن الأمر كما لو كان كلّاً منهم مكلَّفٌ برعاية سماء أدنى من درجة مَحْوِهِ نظراً لسِمَات خاصَّة من نوع ما، وتجتمع السَّماوات السَّبع في فِرْدَوْس واحد في سورة الرَّحمن في المقتبسات الأربعة في صدر الباب، ويقول التّفسير[١٣] «إن الجَنَّتَيْن الأولتين هما جَنَّتا النَّفس والقَلب، يعلوهما الفِرْدَوْس السَّماوي، وأخيراً جَنَّة الذَّات».

وحينما تجلَّى جبريل عليه السَّلام للرَّسول ﷺ في الأرض ظهر له في

(١٣) راجع حاشية رقم ١.

جمال مهيب، فالعين الإنسانيّة لم تُخلق لرؤية تَجلّيات الحَقّ بأكثر من هذا، بل لن تحتمل الأرض ذاتها الحضور الصّرف لأية قوى إلهيَّة، ولكن ملكات الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام كما لو كانت قد ذابت بكمالها في رحابة الرّضوان الَّذي يُسَمَّى «النّور المحمدي» عند وصوله إلى سِدْرَة المُنتَهى، ورأى بعين هذا النّور ما لم يرَ من قبل، ولم يكن بد من أن يحتاج بصره إلى مشهود يتجلَّى في جَلال جبريل عليه السَّلام، وقد رأى هذا النّور المُعْجِبِ مَرَّتَيْن فحسب، وكان كلاهما في ليلة الإسراء، وكانت الأولى قبل أن يذوب النّور المحمدي في بهاء نور الذّات، أى قبل دخوله إلى الحَضْرَة الرَّبّانيَّة، وكانت الثّانية عند خروجه من الحَضْرَة العَليَّة قبل أن يبدأ هو وجبريل عليهما السَّلام في رحلة الهُبُوط في طباق السَّماوات قبل أن يخبو النّور المُعْجِبْ رويداً رويداً كما توهَّج في رحلة الصُّعود بما يتناسب مع البَصَر، وتشير سورة النّجم إلى الرُّؤية الثّانية، كما تُعَبِّر آياتها الكريمة عن وَعي الإنسان الكامل بأنه يستحيل لأى شيء أن يخرج عن الحَقّ بما فيه أعظم مُعجِبات الخالق. والحَقّ إنه شهده في وحي آخر، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [النجم، ٥٣: ١٣-١٨]، ويقول المُفَسِّر عن السِّدرة إنها «شجرة في السَّماء السَّابعة تَحُدّ مُنْتَهى عِلْم الملائكة، ولا يَعْلَم أحد منهم ما وراءها، ... وهي الرّوح الأعظم ... وليس وراءها إلا الهَوِيَّة الأسْمَى، ... ولم تحجب السِّدرة ولا بهاء أنوار جبريل عليه السَّلام بَصَر الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام عن رؤية الحَقّ جَلَّ

جَلاله، فَمَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى[١٤]، فلم ينظر إلى نفسه فيحتجب بفرديَّته».

و« جَنَّة المَـأوى» هي ذروة جَنَّة الرّوح أو جَنَّة الذّات، وهو اسم ينطبق بجانب أو آخر على الفَراديس الأخرى التي جاء ذكرها في الكتاب الحكيم، أمّـا عند أرواح المقرَّبين فـإن كل فِرْدَوس هو جَنَّة الفِـرْدَوس، و«تؤى» كما أوت جَنَّة المَأوى الرَّسول وجبريل عليهما السَّلام.

وَيَنْبُـع نهـر الـرّوح مـن جِـوَار سِـدْرَة المُنْتَهى عنـد أعلى حـدود العالم المَخلوق، وهو أحد نَبْعَيْن جاء ذكرهما في افتتاحيّة المُفَسّر أنهما «معرفة وحدة الصِّفات»[١٥]، وهنا يجد السَّـالك «برهان» مذهب التّوحيد، فيقال إن هذه الصِّفات تبدو في هذا الفِرْدَوْس كأسـتار يسـطع خلف كل منها نور الذّات الواحدة، ومن ثم يعكف على تعريف نبع الرّوح بأنه «المُشَـاهَدة»، في حين أن نبع الذّات هو معرفة «وحدة الذّات»، أى وحدة المَحو والفَناء.

والتَّمـر فاكهـة جَنَّـة الـرّوح، وهو غـذاء ومتـاع، وهو شـهود الأنوار السَّـماويّة للجمال والجلال الرَّبّـاني في مَقام الرّوح، فلم يزل في الإنسـان في فراديسـها نـواة الفرديّة الَّتـي تطلب الغذاء والمُتعـة من الرُّمّـان فاكهة جَنَّة الذّات، ويصفها المفسِّرُ بأنها «نخلة ثمرها غذاء ودواء» في مقام التّوحيد في جَنّة الذّات، وهي الوعي المباشر بها، أي «الشُّهود الذّاتي» بتمام محو الفردانيّة بحيث تسـقط الحاجة إلى غذاء أو إمتاع، بل مسرَّةٌ لا يشـوبها شوب وشفاء من الأدران الَّتي ترسَّـبَت من حال القَلَق في كلّ ما عدا الحَقّ سبحانه، وهو

(١٤) ويتضح معنى كلمة "طغى" في قول الرَّسول عليه الصّلاة والسّلام "وجودك ذنب لا يُقاس به ذنب".

(١٥) وهناك مغزى عميق في كون كلمة "عين" العربية تعني العين المبصرة ونبع الماء.

فاكهــة حَــقّ اليَقِين، والَّتــي لا زالت وراء مَطَال من وصــل إلى جَنَّة الرّوح، ولكــن يمكــن أن يُقال عنه إنه قد بلغ مبلغاً أبعد من عين اليَقِين، ذلك رغم أن شــوائب من فرديَّته أي ذاتيَّتــه لا زالت عالقة به، ولم تفنى تماماً في الحَقّ، ولكنه يشــعر عــلى الأَقَلّ بحرارتها وَيَرَى لهيبها بعــين اليَقِين[١٦]، وهي مقام معرفة الإنسان الكامل.

(١٦) ويناظر الاختلاف بين "عين اليقين" و"الحق" ما رآه الطاويون بين مقامي "الإنسان الكامل" و"الإنسان المتعالي". راجع التعريف الكامل لهذه الاصطلاحات في كتاب الشيخ عبد الواحد يحيى Rene Guenon, La Grande Triade, Chp. XVIII

# الباب الثالث
## عين اليقين

﴿وَقُلنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ...﴾

[البقرة، ٢: ٣٥]

يحكي لنا تراث العالم أجمع عن عصر عاش فيه الإنسان في جَنَّة على الأرض، ورغم أنه قد قيل إنه لم يكن على وجه الأرض فساد بعدُ يمكن أن نفترض أن طبيعة إنسان ذلك العصر قد تباعدت تدريجيّاً عن السُّمُوّ الرّوحي باعتبار السَّقطة التي تَلَتْها، ومرجع ذلك هو قِصّة آدم وحواء عليهما السَّلام، ويُقَال إن خلقهما كان علامة على مرحلة مختلفة من مراحل الجنس البشري في ذلك الزَّمَن، ويرمز خلق آدم وسُجود الملائكة له إلى أن الإنسان قد خُلِقَ عارفاً بِحَقّ اليَقِين، ويرمز خَلْق حَوّاء إلى أنها وُلِدَتْ من آدم ولم تَعْرِف إلَّا عَيْن اليَقِين فحسب، أي حال ظُهور الكَمال الإنساني فقط، فقد كانت حَوّاء في الأصل بعضاً من آدم، مثلما تنتسب الطّبيعة الإنسانيَّة إلى الطَّبيعة الرَّبّانيّة، وينم وجودها المنفصل عن الطّبيعة الإنسانيَّة عن هُوَيَّةٍ مخصوصة بذاتها، ويناظر افتقاد الكَمال فيها افتقاد جَنَّة عَدْن في الأرض، وهو علامة على نهاية العصر الأَوَّلاني.

وليست عَيْن اليَقِين في حَقّ اليَقِين بشيء يُذكر، إلا أنه يُقَالُ إن ظلام العالم ليس إلَّا نوراً أبهى وأحلى حتى إنه لا يترك مجالاً لأنوار أَشَدّ، وربَّما اتَّضَح ذلك من آيات القرآن الكريم التي تَقُصّ علينا كيف رَفَعَ الله سبحانه إبراهيم عليه السَّلام في درجات اليَقِين حتى وصل للحَقّ، وسوف نذكر هذه الآيات في موضع آخر بتفصيل أوسع، ونكتفي هنا باقتباس ما

يتعلَّق بِعَيْنِ اليَقِين، ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّي... ﴾ [الأنعام، ٦: ٧٧].

ووحـده مَـنْ رأى قَلْبه هذا القَمَر هو الإنسـان الحقيقي، فليس فقط من الطبيعي أن يمتلك الإنسان عين اليقين بل يمكن القول إن هذه العين الثالثة هي أكثر ما يميزه عن بقية المخلوقات الأرضية. فلو اتَّصَلَت الأرض ببيت لا نوافذ فيه لأصبح الإنسان بُرْج حراسة، ولكانت عَيْنُ قَلْبِه (١٧) كنافذة وحيدة في البُـرْج يَتَطَلَّع إلى نورها كلّ سُـكَّان البَيْت. ولا يملك الإنسـان دونها أن يقـوم بواجبـه الجوهـري، فبعد أن سـقط مـن طبيعتـه الحَقَّة أصبـح الوعاء الأرضي الوحيد الَّذي يمكن أن يسـتقبل نـور الرّوح، فهو الَّذي ينشرها بين المخلوقات، وإذا لم يكن سَيِّد الكَوْن فهو على الأَقَلّ سَيِّد حالة الوجود هذه، ورغم أنه لا يملك السَّـماوات إلَّا أنّ السَّماوات ذاتها تَنْحَنِي لتلمس الأرض في شخصه بأَسْمَى نقطة فيها. وقد فُطِرَت طبيعته على الجَلال والقَداسة حتى وصفه القرآن الحكيم «بالخليفة» «الولي» وصفات أخرى أعلى من ذلك. وهو إلى ذلك «مُرْشِد روحي» يهدي الآخرين إلى حال الكَمال الإنساني، فضلاً عن أنه يرتفع بنفسـه في السَّـماوات حتى يفنى في الحَقّ، ولا حاجة به إلى مُرْشِـد، فهو يرى بِعَيْن اليَقِين طريق النّور الَّذي يصل بين قَمَر القَلْب وشَمْس الرّوح، وهذه هي الحال الطّبيعيَّة للإنسان.

---

(١٧) وينمُّ هذا الاصطلاح الذي يبدو هنا مساويا لعين اليقين دائما عن رؤية روحية مباشرة، إلا أن مغزاها يختلف بفعل شدة تلك الرؤية، فالقلب أي مركز المرء في الفردوس الأعلى لم يعد القمر ولا الشمس، فهذه "يرتديها" المحبون حليًّا من الفضة والذهب، كما تنمُّ ثيابهم السندسية عن علو مقامهم الروحي، وحولهم "ولدان مخلدون"، وليس القلب إلا الذات ذاتها، ولا بد أن هذا كان هذا المعنى الأسمى لرؤية الصوفي الحلاج، رأيت ربى بعين قلبي ❊ فقلت من أنت قال أنت.

# الباب الرابع
# عِلْم اليَقِين

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾

[البقرة، ٢: ٣٧- ٣٨].

لا بـد أن نتذكَّر أن العـالَم الخارجي انعكاس لروح الإنسـان ويناظرها تمام المناظرة حينما نتفكَّر في تعاليم الأديان. وأحياناً ما تعبِّر عن ذلك التَّناظر أقـوال مثـل «إن العالَم بمثابة رجل كبير» أو «إن الإنسـان عـالَم صغير»[١٨]، وبموجـب التّناظر بين هذين العالَمين يمكن تفسـير الكلمات المُقَدَّسَـة الَّتي تشـير إلى الكـون الأكـبر مبـاشرة لتنطبق على الكـون الأصغـر كذلك[١٩]، والحَـقّ إنَّ تعاليـم الأديان تسـتقي صوراً من الكون الأكـبر لتصوير طبيعة الكـون الأصغـر، فالإنسـان الدنيـوي[٢٠] لا يـرى إلاَّ عـالم الظّاهـر بـكل تفاصيله، وليسـت نفسه إلَّا غابة مظلمة، وليس كالإنسـان الحَقّ[٢١] الَّذي

(١٨) ويُنسب إلى الرئيس بن سينا بيت يقول

وتزعـم أنـك جُـرْمٌ صغيـر وفيك انطـوى العالم الأكبر. المترجم.

(١٩) ويقول مولانا الرومي صورتك كون صغير للكون الكبير. الشيخ سيد حسين نصر، الحاجة إلى العلم المقدس، الباب الثاني. قيد الترجمة، المترجم.

(٢٠) غلب استخدام الشيخ لمصطلح "الإنسان الساقط The Fallen Man" التي رادفناها في هذه الترجمة "بالإنسان الدنيوي". المترجم.

(٢١) وقد استخدم الشيخ كذلك مصطلح "الإنسان الحق The True Man"، وقال في صفحة ٨٤ more particularly the Prophet، وقد استخدم الشيخ عيسى نور الدين مصطلح "الإنسان الكامل The Perfect Man" بمفهوم الشيخ عبدالكريم الجيلي في كتابه "الإنسان الكامل في

يـرى الكونـين ويفهمهـما، فيمكـن أن يُفهم ما يقولـه القـرآن الحكيم مثلاً عـن الكافرين باعتباره مرجعاً لتعيين أسـوأ النّاس طـراً في عالم الظّاهر، بل يلقي أيضاً ضوءاً على أسـوأ العناصر في نفس الإنسـان السَّـاقط، والَّتي قد تناظـر أو تكافئ الكافرين في الدُّنيا. وَلِنَتَّخِذ مثلاً آخر من التّناظُر المَحمول مباشرة على ما سبق ذكره، فيجوز القول إنَّ نبع الخُلود الَّذي ينبثق في مركز جَنَّـة عَـدْن نظير لعين اليَقِين في مركز نفس الإنسـان، أو أن عَيْن اليَقِين هي بالحَريّ انعكاس أظهرَ لنبعِ جَنَّةِ عَدْنٍ ذاته، والمَغزى هو أن الإنسان قد فَقَدَ الفِرْدَوس الباطن «للعَيْن» كما فَقَدَت الدُّنيا «جَنَّة عَدْن».

ولا تناظر حال الدُّنْيا الظّاهرة الحال العامَّة لنفس الإنسـان فحسـب بل هي كذلك تعتمد على تلك الحال، وحيث إنَّ الإنسان فَقِيه ذاته في هذا العالم فلا مَناص من أن يؤثِّر فَسَاده على كلّ شيء، وقد كانت أحوال العصر الَّذي تَـلَى العـصر الأَوَّلاني أعراضاً ظاهـرةً تنم عن أن الإنسـان لم يعد يحتكم على فـردوسٍ باطنـيٍ حتى عَمِيَ عـن كلّ ما يذكره به، وكان إنسـان ذلك الزّمان عـلى مَقْرُبَة منه فكان أكثر وعياً بافتقـاده، ويمكن القَول بلا مبالغة إنّ معظم ما تركه الأَقدَمون وراءَهم موسومٌ باعتبار الكيفيّة التي تمكِّنهم مِن العَوْدة إلى الفِرْدَوس كي يَصِلوا إلى نموذج الإنسـان الكامل. ولذا وهبت الأديان عِلْم اليَقِين للإنسان، وهو «الهُدى» الَّذي ذكرته الآية الكريمة في صَدْر الباب.

وقـد ذكرت سـورة الواقعـة «السَّـابقين» الَّذين يسـعون إلى العَوْدَة إلى الطَّريـق القَويـم، وأن منهم كثيراً من الأَوَّلِين وقليـلاً من الآخرين، وتذكر

---

معرفة الأوائل والأواخر"، وقد أثبت الصفة بكمالها وجلالها للرسول عليه الصلاة والسلام، ورأينا أن نترجم الاصطلاح هنا "بالإنسان الكامل" نظرا لاعتياده عند جمهور المتصوفة وإن لم نقتصر عليه بحسب السياق. المترجم.

السّـورة الكريمـة بعـد ذلـك «أصحـاب اليمين» وهـم كثيرٌ بـين الأوَّلين والآخريـن، وأولئـك هـم الَّذيـن تمسَّـكوا بصحيـح الدِّيـن، ونقيضهـم «أصحاب الشّـمال» الَّذين يثورون على هذا الدِّين، وهذا أمر يرجع إلى ميل المخلوقات الأرضيّة إلى الانحطاط، ولذا كان تابِعُوا الطَّريق القَويم قِلَّة بين المُعَاصِرين بالنسبة إلى أهل الزّمان القديم.

# الباب الخامس
# جَنَّات القلوب وجَنَّات النُّفوس

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾

﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾﴾

[الرحمن، ٥٥: ٤٦، ٥٠، ٥٢، ٥٥]

كانت جَنَّة عَدْن عند الإنسـان الأَوَّلاني هـي الكَوْن الأكبر الَّذي يُناظر الفِرْدَوس الباطن في نفسه، وحيث إن نفسه قد انطوت على عَيْن اليَقِين الَّتي تتعالى على عناصرها الأخرى فيجوز القول كذلك إنها تنطوي على الجَنَّتَيْن، وأعلاهما جَنَّة القَلْب التي سـتناظر مركـز جَنَّة عَدْن حيث ينبع نهر الخُلود، والجَنَّـة الأدنـى هي جَنَّـة النّفس التي سـتناظر حدائـق الأرض وغياضها، ويشـكل الجَنَّتان معاً درجة الكمال الإنسانيّ، وهذه الدَّرَجَة هي أولى مراقي رحلة السَّالك، وقد عَبَّر سليمان عليه السَّلام عن المَخافة التي تُؤَدِّي إلى هذه الفَراديـس بأنها بداية الحِكْمَة، ويقول المُفَسِّر «إن المَخافة التي ينيرها القَلْب صِفَة مِنْ صِفات النّفس وأحد مراحلها».

ويتجـلَّى الاختـلاف بـين جَنَّتَـي القَلْـب والنّفـس الَّـذي يُشَـاكِل[22]

---

(٢٢) وسوف تتردد صيغ صرفية عدة "للتشاكل" في سياق هذا الكتاب، مثل "يُشاكل" و"مُشاكلة" و"مُشاكل"، ونزجي إلى القاريء بيتين منسوبين إلى الصوفي الحلاج لبيان المغزى من التشاكل،

رق الزجاج وراقت الخمر ... فتشاكلا وتشابه الأمر

فكأنما خمر بلا كأس ... وكأنما كأس بلا خمر

الاختلاف بين الجَنَّتَيْن الأعلى في الثِّمار الَّتي تُثْمِرُ في كلّ منهما، ويقول التّفسير « فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ، أى إنهما لإرضاء الشهيّة، وأحدهما خاصّ والآخر عامّ، والخاصّ «معروف ومطلوب»، أما الآخر فهو «كُلِّي وغَريب»، والحَقّ إن القَلْب يستوعب كلّ فكرة كليَّة بصورة مخصوصة في النّفس، كما أنه لن يستوعب شيئاً إذا لم يكن متجذِّراً في القَلْب».

أمّا عن النَّبْع فعلينا أن نتذكَّر أن عُيون الفِرْدَوسَين الأسميين لا «تجري» ولكنها «تتفجَّر»، أي إنها لا تستقي مياهها من جَنّة الذّات بل تفيض من تلقاء ذاتها، ولا يَصِحّ أن يؤخذ هذا بمعنى مستقلّ عن الذّات بل بمعنى انقطاع التّواصل بين الجَنَّة الأسمى وبين ما يدنو عنها من فراديس. نظراً لتقاربها من الأرض، وقل مثل ذلك عن الفراديس والجَنّات كافة، ولكنها أشبه بالانفصال النِّهائى، إلا أن هناك استمراريّة نسبيَّة بين الجَنّات الثّلاث الأدنى، وهو ما يَتَبَيَّن من صفات عيونها، فيقول المُفَسِّر «إن الآية الكريمة عن جَنّات القلوب وجَنّات النّفوس تقول «فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَان، ويوازى الماء النّور في الشفافيّة وتلقائيّة الحَرَكة» ولذا كان رمزاً للمعرفة الرّوحيَّة، ورغم أننا ذكرنا رمزيّة النّور سلفاً نأمل أن نتوسّع فيها في بابٍ تالٍ، ويحسن بنا أن نعرج عليها هنا بما يعين على جلاء الفَوارق بين العُيون الأربع.

فترمز الشّمس إلى النّور الَّذي يُنَاظِر جَنّة الرُّوح، أى الرُّوح ذاتها،

---

أما في العلوم الغربية الحديثة فقد احتل مفهوم التشاكل isomorphism موضعا مركزيا في كتاب دوجلاس هوفشتادتر,(Godel, Escher, Bach, an Eternal Golden Braid A Metaphorical Fuge on Minds and Machines. Vintage Books, New York) ١٩٨٠، والذي حاز جائزة بوليتزر عام ١٩٧٩. المترجم.

وهـو نبَعْ القَلْـب الَّذي يقول عنه المُفَـسِّر إنه «عَيْنُ الإدراك الـكُلِّي»، والتي تَتَماهـى مع عَيْن اليَقِين، وهـي عَيْن الخُلود، ويُرمَزُ إليهـا بالقَمَر[٢٣]، والحَقّ إنـه يمكـن القَول عن النّور إنه «يتفجَّر» من الشّـمس[٢٤] ومن ثم «يفيض» منها إلى القَمَر، ومنه يَسْطَع على كلّ الكائنات التي تتولّى بدورها انعكاسها إلى غيرها بحسب هِمَّتِهَا، ويجوز أن نأخذ أيّة نقطة تماس بين نور القَمَر وبين كائـن عاكس رمزاً لِعَيْن النّفس، وهذه العَيْن عند المفسِّر هي «عَيْن الإدراك المَخصوص»، وليسـت على الحقيقة إلَّا «عِلْم اليَقِـين»، فهذا العلم هو حقاً مَصْـدَر وضُوح فَهْم الإنسـان الكامل للخصوصيّـة «المعلومة المطلوبة» في العالَم الخارجـي، وهي طريقته في فهم طبيعتها، فكما تمتاح عَيْن الخُلود التي تنبـع في قَلْبِـه من ماء جَنّة الذّات فـإنّ عَيْن عِلْم اليَقِين الَّـذي ينبثق في عقله يمتاح ماءه من جَنّة القَلْب، ويسـتطيع منها أن يُرجِعَ كلّ صورة مخصوصة إلى مثالهـا الـكليّ، وأن يَهْنَأ بها لا من أجل ذاتها بل لأنهـا ظِلال أو صُوَر من حقائق أسـمى تَسْـتَقي مذاقها من نَبْع جَنّة النّفس، أي من الأشياء الخاصّة التـي استوعبتها الحَـواسّ بأن تكشـفها له في كـمال طبيعتها الحَقَّـة. أي إنه يَظَـلّ واعيـاً بالرُّوح بفضـل هذه العَيْن حتـى عند وقوعه في تلـك المَفاهيم المخصوصة.

ويُشَـاكلُ خَطُّ التّواصل بين جَنّات الرّوح والقَلْب والنّفس سريان ماء

---

(٢٣) وقد جاء في التوراة فَعَمِلَ الله النورين العظيمين، النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم. سفر التكوين ١٦. المترجم.

(٢٤) ويشاكل التمييز بين تفجر العيون وجريانها التمييز الذي ورد في الآية الكريمة ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً...**﴾ [يونس، ١٠: ٥]

الأنهـار الَّـذي لا ينقطع، وهـو البَصِـيرة، ولا تَتَدنّى البَصِـيرة الصّرف عن جَنّـة القَلْب، أما المياه التـي تَسْري بين العَيْنَين الأدنيَـيْن فترمزا إلى المَلَكات البَصيريّة التي صارت مُتَّشِـحَة تَحتَجِب جزئيّاً بالجَوْهَر النفسي، وهما مَلَكَتا الوَعِـي البصيري، يَتوسَّـطا بـين العَقْل الَّـذي يحكم النّفس وبـين البَصِيرة الـصَّرْف التـي تَحكُم القَلْـب، ومعرفتهما أكثـر يقيناً منها علـماً، ولكنها أَقَلّ يقيناً منها عيناً، ويمكن أن تُسَـمَّيا مَشِيئة السّماء حيث إنهما يَتَّجِها تلقائيّاً إلى العالم الآخر، كما تَتَّجِه الشّهَوات المُعتادة تلقائيّاً إلى هذا العالَم.

وتُشَكِّل هذه المياه الوسيطة شطراً هَيِّناً من جَنّة النّفس بمعنىً ما، فالعُيون جزء جَوْهَري مِن سِمَاتها، وقد فُطِرَتْ على عنصرين هما المَلَكات البَصيريّة التي تَتَطلَّع إلى جَنّة القَلْب، وهي راضية دوماً بالنّور الَّذي يَسطَع منها، والشّهوات الأرضيّة التي تَتَطلَّع إلى الأمور الحِسِّـيّة الخاصّة للعالم الظاهر، وتَرضَى بقدر ما تَسْـمَح به الأحوال لِشَـهَواتهم، وهي على الحقيقة لا تحصل إلَّا على اكتمال تحقيق الشّـهوة والرِّضَى الزّائل بها، وليس الرِّضَى ذاته بمعناه الكُلِّي، وهذا ما يفرِّق بين نفس الإنسـان الكامل ونفس الإنسـان الدُّنيَـوي، ويَحِقّ القَوْل إن الشّهوات الأرضيّة لا يمكن أن تَتَحقَّق إلَّا في حدود بعينها[٢٥]. إلاَّ أن ذلك لا ينطبـق عـلى تَطَلُّع المَلَكات البَصِيريّة إلى السّـماء، وتنطبـق بأقلّ من ذلك

(٢٥) وتعتمد جنة النفس في تحقيق ذاتها على ظاهر الكمال وأحوال الباطن، أي كمال الثمار وكمال النبع، حتى إن الإنسان الكامل يمكن أن يمتلك جنة النفس بتمامها أثناء حياته لو كان يعيش في جنة عدن، أي في الزمن الأول، ولكنه سوف يستمتع بها كاملة في الحياة الأخرى بعد وفاته بعد أن يتحرر من الجسد، ويُقال إنها امتداد لأحوال الأرض الجسدانية ولا يصيها فساد، وتظل على الدوام في كمالها الأولاني، والواقع أن اصطلاح "جنة النفس" يُؤخَذُ عادة بمعنى ذلك الامتداد للحال الإنساني بعد الموت.

على جَنّة القَلْب، والتي هي أسمى مِن كلّ الأحوال الأرضيّة حتى إنها فوق المَوت ذاته كما يوحي اسم «نَهْر الخُلود».

# الباب السادس
## السقوط

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه، ٢٠: ١٢٠]

يُقال إن مركز جَنّة عَدْن لم يكن عيناً فحسب بل كان كذلك شجرة تَتَفجَّر من أسفلها العَيْن، وهي شجرة الخُلود التي تَحيا في جَنّة القَلْب، ثمارها الأشياء «الكُليَّة الغريبة» عَن الحِسّ، وهي التي تُرى بعَيْن اليَقِين أي عَيْن القَلب، ولا يُسَمَّى السّالك إنساناً كاملاً حَقّاً قبل أن يَصِل إلى النّبع والشَّجَرة، كما لا يمكن القَوْل إنه قد قَطَع الشَّوط الأوَّل من رحلته بأمان، فقد يجرفه تيَّار الانحطاط والفَساد وهو الشّيْطَان ذاته، ولكن السّالك إذا شرب مِن النَّبْع وأكل مِن الشَّجَرة فقد بورِكَ بحكمة عَيْن القَلْب، والتي تَنْطَوي على اتّصال مُبَاشِر بالرّوح، وحينئذٍ يَسْلَمُ مِن كلّ خِدَعِ الشّيطان وصَوْلَاته، وهذا مَقَام الإنسان الكامل الَّذي لا يختلف عن مَقَام العَبْد الحَقّ لله جَلَّ جلاله، ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ...﴾ [الإسراء، ١٧: ٦٥].

وحين نعتبر في الكيفيّة التي يُفْسِدُ بها الشّيطان الإنسان يمكن أن نستنبط أن الإنسان عموماً في زمن السّقوط قد نأى عن المعرفة بِحَقّ اليَقِين، وتَوالَدَت مِنه أجيال بدون عَيْن اليَقِين، أي بلا رَشَاد باطن إلى نَبْع الخُلود وشجرته وإلّا ما خَدَعَهُم الشّيطان، ويَتَّضِح من الآية الكريمة في

صَدْرِ الباب أن آدم الَّذي سقط[٢٦] لم يَرَ شجرة الخلود الحقيقية، وينبني على ذلك أن كمال الإنسان في بداية العصر الأولاني كان موروثاً حيث إن الناس قد تناسلوا بتكوين غريزي في نفوسهم بعد أن فقدوا عين القَلْب، ولذا يمكن تصور أن العناصر النّفسيَّة المختلفة كانت في مواضعها الصحيحة بفضل انعدام سبب للانحراف، وقد نحَتْ ملكات الاستيعاب الحِسِّي والشَّهوات الأرضيّة إلى تشكيل ظاهر النّفس، وكَمُنَت ملكات البصيرة السماوية بالقرب من المركز على أمل قَبَسٍ من مشهد شجرة الخلد، ويوسوس الشيطان إلى هذه الملكات الباطنة، فهي فحسب من بين عناصر النّفس التي تتطلع إلى «الكلي والغريب» من ثمار شجرة الخلود وملكوت الآخرة الَّذي لا يبلى، وحيث إن الشيطان لا يملك إلا أن يذيقهم من ثمار شجرة النّفس «المعروفة والمطلوبة»، فضلاً عن كونه محروماً من دخول جَنّة القَلْب، فلا مناص من أن يُضِلَّهم كذباً فيغويهم بالمحسوسات التي يضفي عليها شبهاً من الغرابة حتى يستخدمونها بشكل غير مألوف، وهكذا لخصت الآية الكريمة تضليله للبشر على مَرِّ العُصور، وهو لا يكفُّ عن الوعد بأن يُجْلِيَ لهم شجرة الخلود ليختزل أسمى عناصرهم إلى مجرد تفصيلة على قشرة نفوسهم، فيحبسهم فيها مع المحسوسات الزائفة التي صاغها لهم وحسَّنَها في عيونهم، وينتهي حضور هذه الملكات المنحرفة إما بالنفور لأنها لم تؤدي إلى رضى حقيقي أو أنها انتهت بهم إلى حالٍ من الانحطاط نظراً لأنها لم توضع في موضعها الصحيح، وتتحول إلى فوضى عارمة وعوائق وخراب

(٢٦) وقد أسند كثير من المفسرين المقولة الصوفية التالية للرسول عليه الصلاة والسلام، "إن الله تعالى خلق مئة ألف آدم قبل آدم الذي نعرفه".

ذكرته الآيات الكريمة ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر، ١٠٣: ١-٣].

ويُقسِمُ القرآن الحكيم بالعصر الَّذي يسبق غروب الشّمس ونهاية اليوم، ويناظر الزّمن الرّاهن الَّذي وصلت فيه ملكات الإنسان البصيريّة إلى غاية الانحراف[٢٧]، وكما ذكرنا سلفاً من إمكان تطبيق أحوال الكون الأكبر على الكون الأصغر فإن القَسَمَ في الآية الكريمة يُنذِرُ بخراب الإنسان عموماً وفساد ملكاته البصيريّة خصوصاً، حيث إنها تُشاكِل في الكون الأصغر ما يُشكِّلُهُ جنس الإنسان في الكون الأكبر، وهكذا يمكن أن نفهم آيتا سورة التين ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ

(٢٧) وتنقسم كل حقبة زمنية كبرى إلى أربعة عصور عند الهندوس وقدامى اليونانيين والرومان، وقد أطلق الرومان على هذه العصور صفات الذهبي والفضي والبرونزي والحديدي على الترتيب، وكل منها أدنى مما سبقه، وتعني نهاية العصر الذهبي انتهاء العصر الأولاني الذي تزامن مع السقوط، وبداية العصر الفضي الذي غفر الله تعالى فيه لآدم عليه السلام، أما نهاية العصر الحديدي التي تتزامن مع زماننا فيسميه الهندوس العصر المظلم، ويتزامن مع ظهور المسيح الدجال وعودة المسيح عليه السلام، إلا أن التناظر يشحب موضوعيا وتاريخيا بقياسه إلى المنظور الهندوسي، أما المنظور الإسلامي فهو ذاتي وعملي، فبدلاً من الاعتبار في التقسيمات الكبرى للعصر المقصود يذكر القرآن الكريم فحسب الحضارات القليلة التي كان يعرفها العرب في زمن الوحي، زد على ذلك أن القرآن الحكيم يذكر فقط فوارق طفيفة بين العصور المختلفة، ويركز على أن كل عصر يزدهر في بدايته ثم ينتهي إلى خراب، ولا قيمة للتاريخ عند العرب إلَّا في حدود برهانه على نهاية وفساد كل الأمور الأرضيّة.

وتقول النظريّة الهندوسيّة إن هناك كثيراً من الدَّورات العُظمى، ولكلّ دَوْرة منها أربع مراحل، بحيث تتبع بداية عصر ذهبي جديد نهاية عصر مظلم بائد، أما منظور أديان التوحيد اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام فإنه يعتبر الزّمن مقصوراً على جانبه المدمّر، إذ إن وجود الأرض بأجمعها محتبس في دورة واحدة فحسب، حتى إن الدَّمار الأخير في نهاية هذا العصر عادة ما يقترن بنهاية العالم، ولكن تراث هذه الأديان الثلاثة متين في منظورها إلى عودة المسيح عليه السلام وحكمه كملك للعالم لفترة بعينها فيتفق مع المعتقد الهندوسي الذي يرى أن "كالكى أفاتارا" الذي سيجئ ممتطياً حصانا أبيض سيكون ظهوره علامة على نهاية عصر أسود وبداية عصر ذهبي جديد.

أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥﴾ [التين، ٩٥: ٤- ٥] من حيث إنهما تشيران إلى تلك الملكات كما تشيران إلى الإنسان عموماً، فينحطُّ الإنسان الَّذي خُلِق أفضل من مخلوقات الأرض كافة إلى أسوئِها قاطبة، وتصبح ملكاته التي كانت أثمن عناصر نفسه مصدراً للخراب الَّذي تمخض عنه سقوطه، وتصور حقيقة المقولة اللاتينية corruptio optimi pessima بمعنى «إن فساد الأفضل يجعله الأسوأ»، وبغض النّظر عن العوائق التي تتراكم في النّفس بفعل الأوهام الضّالَّة فإن ملكات الحواس الأرضيّة والشّهوات تتأثَّر بتلك العَوائق، فقد كانت بمثابة قَنَواتٍ ينساب فيها ماء عِلْم اليَقِين من فردوس القَلْب، ولو فسدت القَنَوات لفسد القَلْب ذاته، فالشّهوات الخاصّة لا تبلغ أوجِها، إذ إن المحسوسات مُشْتَهَاةٌ لذاتها فحسب، بعد أن فقدت امتيازها كانعكاس لحقائق كليّة. وفي الآن ذاته تُحَصِّلُ متعة آنيَّة زائلة، وتسعى إلى اغتصاب المركز[٢٨]، أما عند السّالك فإنه يَسهُلُ فهم أن الغرض من الصيام والتنسُّك عموماً هو طرد تلك الشّهوات من المركز الَّذي تحتلُّه، فالحَقّ «إن المخافة بداية الحكمة»، ويبدأ واجب استعادة النظام في النّفس بكبت تلك الأهواء الأرضيّة بالمخافة، فهي العوائق التي تعترض السّالك، أما التوهُّمات المنحرفة النائية عن مركز الوعي أو غارقة في الفوضى فعليه أن يَعِي حضورها تماماً، ويندر أن ينجو منهم أحد، حيث إنهم قد أصيبوا في هذا الزّمان بفساد الملكات الأعلى كما جاء وصفهم في سورة يس، ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا فَهِيَ إِلَى ٱلۡأَذۡقَانِ فَهُم مُّقۡمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلۡنَا مِنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ سَدّٗا وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ سَدّٗا فَأَغۡشَيۡنَٰهُمۡ فَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ

(٢٨) وقد قال شيخ من الصوفية "إن الروحى فيه شهوات، لكن الدنيوى هو شهواته ذاتها".

تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠﴾ [يس، ٣٦: ٨-١٠].

والحَقّ إنه يندر وجود من لم تفسد ملكاته العليا بما يكفي كي يتدفَّق شيء من غدير عِلْم اليَقِين في نفوسهم، وليست هذه المرتبة من اليقين إلا «الإيمان» الَّذي تذكره سورة الحجرات، ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات، ٤٩: ١٤]

وقد ذكرت سورة العصر عِلْم اليَقِين الَّذي يُحَفِّزُ به المؤمنون بعضهم بعضاً، ولكن هذا الاعتقاد لا يكفي بذاته، ولا بد من استثناء نادر ليجعل المَرء ينجذب إليه أيضاً لَّا أن يعلمَ عنه ويسلِّمُ به فحسب حتى يولد من جديد، ويسعى إلى الأعمال الصّالحة التي تعبِّر واقعيّاً عن إخلاص النيّة، والتي ذكرها الرّسول عليه الصّلاة والسّلام في حديث عن السّالك الَّذي يعرف الحَقّ وندرته في الزّمان الأخير أكثر من الزّمان القديم، ويقول المُفسِّر عن الصَّبر «والحَقّ أن مِن السَّهل أن يعرف المرء الحَقّ، ولكن المُثَابَرة عليه بالفُروض أَشَدّ نُدْرَة من الكبريت الأحمر والغُراب الأبيض».

وهذه الفضيلة النّادرة ليست إلَّا « الإِحسان»[٢٩]، وتعني النّزوع إلى استعادة كلّ ما فَقَدَه الإنسان منذ غابر الزّمان، ولا يملك السّالك بدونها أن يبدأ مهمَّته بالمَخافة حتى يفسح في مركز نفسه موضعاً لاستقبال عودة

(٢٩) للمزيد عن اصطلاحات "الإحسان" و"الإيمان" و"الإسلام" راجع كتاب الشيخ عيسى نور الدين "عين القلب"، تراث واحد قيد الطبع.

المشـيئة الربّانيَّة، لكنه سـوف يُثابر بالإحسان على المُحاولة، وكذلك سوف يصبر على التعرُّفِ على الشّـهوات التي تزيف الحَقّ الرّوحي والتي صاغتها لـه القِـشْرة الخارجيّة من نفسـه، ولذا تعـيَّن عليه عاجلاً أو آجـلاً أن يتَّخذ طريقاً يَتَّسِق مع طريق المَخافة، وهو طريق المَحبَّة، فالمَحبَّة الرّوحيّة فحسب هـي التـي يمكن أن تَحتلّ مركـز النّفس، حيـث تنتظر انفتاح عَـيْن القَلْب، ثـم إن هذه المَرحلـة الثّانية قد تفيد غرض الأولى بشـكل غـير مباشر، وقد قيـل إن عودة الإرادة العُليا إلى المركز تجعل الشّـهوات تنسـحب إلى خارج النّفـس(٣٠)، وقـد تكـون هاتان المرحلتـان متتابعتـين أو متزامنتـين، إلاَّ أن المخافـة تسـبق المَحبَّة عـلى الأغلب، ولكنهـما يختلفان من نفـس إلى أخرى بحسـب المَقولة الصّوفيَّـة «إن الطّرق إلى الله كنفوس بنـى آدم»، ولكن من المؤكَّـد أنه لا يمكن اسـتعادة حال الكَمال الإنسـانيّ بجَنَّـتَيْـه إلى النّفس إلَّا باكتمال المَرحلتين، أي إن كلّ عنصر قد اتّخذ موضعه الصّحيح.

(٣٠) ويقرب من هذا المعنى ما قاله درويش عربي "لست أنا من ترك الدنيا، بل إن الدنيا هي التي تركتني"، وقد اقتبسها الشيخ عيسى نور الدين في حاشية بكتاب "الوحدة المتعالية للأديان"،تراث واحد قيد الطبع.

# الباب السابع
# الرمز

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم، ١٤: ٢٤-٢٥]

إن الباقي عَزَّ وجَلَّ هو المحيط بكلّ شيء، وهو سبحانه باقٍ قبل الزمان وبعده، وهو قديم الإحسان، وهكذا كان الكدح إلى الفناء في حَقّ اليَقِين أشبه بالذِّكر، وقل مثل ذلك بالتّشاكل عن المَراتب الرّوحيَّة الأدنى، فكلّ مَرْتَبة تنطوي على كلّ ما دَنا عنها، فالزَّمَن ذاته الَّذي ينتمي إلى المَرتبة الأدنى وهي مَرْتَبة الوجود الأرضي تلفُّهُ كلّ المَراتِب التي تَعلو عنه، حتى إن العالم الآخر بكامله بكلّ مراتبه الرّوحيَّة سيكون بعد الزّمن كما كان من قبله، وقد تناول حديث شريف للرّسول عليه الصّلاة والسّلام خلق جسد آدم عليه السّلام في أوّل الزَّمَن ونبوَّته التي تنتمي إلى العالم الآخر، كنتُ نبيّاً وآدمَ بينَ الماءِ والطِّينْ، ولو تفكَّرنا إذن في المَرحلة الأولى من رحلة السّالك لتحدُّثنا عن مَشَاهِد السّماء التي يأمل في رؤيتها بِعَيْن اليَقِين، ويكفي أن يتذكَّرها[٣١] المَرء حتى تحل المَشيئة السّماويَّة في مركزه بعد أن كانت على ظاهر نفسه، ويُسمِّي الإسلام عُموم الوَسائل التي تُذَكِّرُ المُسْلِم بالحال الأوَّلاني «ذِكراً»، وكلُّ ذِكرٍ رمز يثير الذَّاكرة ويَسْتَنير بها.

---

(٣١) ويذكرنا ذلك بكلمات عيسى عليه السلام في شعيرة الخبز والخمر، وقد قال "اعملوا هذا لذكرى"، فقد كان الخبز يرمز إلى جسده وكانت الخمر ترمز إلى ماء عين القلب.

وقد ذَكَرنا سلفاً أن العالم الأرضي الظّاهر يُناظِر بكلِّ تفاصيله عالم الإنسان الباطن، كما أن هناك تناظرٌ مماثُلٌ بين جَنّة القَلْب وجَنّة النّفس، إلّا أن هذين التّناظرين لا يربوا عن حالتين فحسب للحَقّ، فكلّ مجالات الكون تُنَاظر بعضها بعضاً من حيث صورة الكَوْن الكُلِّي ذاته، وقد قامت العلوم القديمة على معرفة هذه التّناظرات التي كانت مفطورة أصلاً في الإنسان، فعلوم الطِّب على سبيل المِثَال قد قامت على التّناظر أو التّشابه بين أعضاء الجَسَد وبين العناصر الطّبيعيَّة الأخرى مثل النّباتات والمَعادن، إلّا أن الكَدح على الطَّريق الرّوحي لا يستلزم معرفة كونيّة أو «أفقيّة» بالتّشابُهَات المَذكورة، فالقرآن الحكيم حين يتحدَّث عن «المثل» أو الرمز يشير إلى تشابه «رأسي» بين النِّطاقات الأعلى والأدنى مثلما ذكرنا من تشاكل القَلْب والنّفس، والرَّمز أمر من قبيل «المعروف والمطلوب»، ولكن السّالك يطلبه حتى يَحظى بقبسٍ من «الحقيقة الكليَّة الغريبة» التي تناظره في نطاق الغَيب، وليست الرُّموز إلَّا الكَمال التّصَوُّري للخَلْق كما نَوَّهْنا عنها كإرشادات وحوافز للسّالك في رحلته، ولها قُدْرَة على تَذكيرِه بِنَظائرها من العَوالم الأَسْمَى، لا بفضل تشابهاتها العرضيّة فحسب بل لأن الظِّلال تُقَارب ما صاغها من أمور، وليس في الوجود شيء ليس ظلّاً فيما تقول سورة البقرة ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا...** ﴾ [البقرة، ٢: ٢٦]، فإذا لم يُلْقِي عالمٌ ما ظلالَه على الَّذي يَدْنو عنه لاختفى الوجود برمّته، وحيث إن كلّ عالم في الخَلْق ليس إلَّا نسيجاً من الظِّلال والانعكاسات فإنه يعتمد على مثالاتٍ مِن العالم الَّذي يَعْلُوَه، وأسبق حقيقة عن أي شيء كان هي حقيقة رَمْزِه، حتى إن تأمّل السّالك في رمزٍ يجعله يتذكَّر حقائقه الكليّة التي

تُفَسِّر وجوده.

ولا يكاد «أصحاب اليَمين» يشعرون بالجانب الرَّمزي للأشياء، فهم يقيمون الشّعائر التي هي رموز حقّاً، ولكنها ليست رمزيّة تماماً حين يُقيمونها، أي إنها ليست ذكراً فحسب، فالسّالك لا يقيم فرائض الشّعائر فقط بل يقيم كلّ الطّقوس في الحياة الأرضيّة التي هي آخر أهداب الظِّلال المُناظرة لها، والتي تُخَيِّم على الكون بأكمله، ولذا يتمكَّن من جعل كلّ أعماله شعائراً[٣٢] تُشَاكِل الشّعائر المفروضة في دينه، فيجعل من كلّ شيء ذكراً، ونستعير صورة عن كلّ متتالية من الظِّلال أو الانعكاسات تُناظر درجات سُلَّم يَمْتَدّ بين السّماء والأرض، وهو شيء أرضي، ويكون السّالك هو الدّعامة التي تحمله، ويقف ناظراً بالرّجاء إلى أعالي السّماء، ووقفته هذه شعيرة، وهذا السّلم في العالم المخلوق هو الّذي رآه يعقوب عليه السّلام في رؤيا تَصعد عليه الملائكة وتَهبِط بين السّماء والأرض، وهو أيضاً «الصِّراط المُستقيم»، فليس طريق الدِّين الحَقّ إلَّا طريقاً للخَلْق ليقتفوا أثره من آخره إلى أوَّله.

والسّلم رمز للشّعيرة الحَقَّة وكلّ ما تعنيه، كمَثَلِ «الكلمة الطَّيِّبة» المذكور في صَدر الباب. والحَقّ إن أرفع مثال للكلمة الطَّيِّبة هو اسم رَبّاني

(٣٢) وتعني النية في جعل كل أعمال المرء شعائراً أن يجتنب الأمور التي لا علاقة لها بالحق جل شأنه ولا تنفع ذكراً له جل جلاله، فالذبح في ذاته على سبيل المثال ظل ناءٍ لمعنى اسمه "المميت" سبحانه، وهو ما يجعل فعل الذبح طقساً في التضحية بحيوان، لكن الحق إن اسمه "المميت" لا ينفصل عن باقي أسمائه الحسنى عز وجل، أما القتل فينطوي على نوع من الانقطاع لا يعكس شيئا من الرحمة والكرم والسكينة الربانية، والقاتل ذاته خليط شائه غير متجانس لظلال نائية للمميت تقدس اسمه.

يُنْطَقُ ذكراً ورجاءاً للحَقّ سبحانه، فجذر الشجرة المَتين هو الذِّكر لغرض ثابت معلوم، وترمز الفروع التي تتطاول إلى السّماء إلى أهميّة الذِّكر، والَّذي يتسامى متخلِّلاً الكون بأكمله، وثمار الشّجرة هي الحقيقة التي أقيم لها الذِّكر.

# الباب الثامن
## العوالم الأربعة

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ الإسراء، ١٧: ٤٤]

إن عـدد العَوالِمِ يجِلُّ عـن الحَصر، إلَّا أنه يبدو للإنسـان أن هناك أربعة أقسـام رئيسـيّة(٣٣)، ويُسـمَّى أدناها عالم المُلك، وهو عالم المـادَّة، يعلوه عالَمَ المَلَكـوت وهو عالم قُوى النّفس، ويحتوى الثّالث على السّـماوات المختلفة، وهو عالَم الجَبَروت، والأسْـمَى منه هو عالَم العِزَّة، وهو عالَم الغَيْب، ويبدو أوَّل عالَمَين منهما عالماً واحداً بالمعنى المُعتاد، وهو عالَم الوُجود الإنسـاني، في حين أن العالَمَ الثالث ينطوي على عوالم شـتّى هي السّـماوات المختلفة. ولو اعتبرنا في الكون الأصغر فالعالمان الأول والثاني هما عالما الجسـد والنّفس، واللَّذان يُشَـكِّلان صورة الكائن الإنسـاني، وتُناظِران عند الإنسان الكامل جَنّـة النّفـس، وتقوم جَنّة القَلْـب بين عالَم المَلَكوت وعـالم الجَبَروت، وهي ذاتها جَنّة الرّوح، أما العالم الأسْمَى فهو جَنّة الذّات، وبدونها لن يقوم عالم أدنى، وليسـت العوالم الثلاثة التي تدنو عنه إلَّا انعكاسـاتٍ متتاليةٍ له تزداد شـحوباً كلَّما تدنَّت، وانعكاسـات الحَقّ الأوحد هي التّسبيح المُشار إليه في

(٣٣) وقد ذكرت القبالة اليهودية أربعة عوالم، وتناظر العوالم الثلاثة الأدنى منها الثلاثة التي ذكرناها في المذهب الهندوسي، وفيها وراءها عالم الخفاء أو الغيب. راجع الشيخ عبد الواحد يحيى، الإنسان ومصيره في الفيدانتا، تراث واحد، قيد الطبع.

الآية الكريمة، فشعيرة العمل الصّالح رمزٌ له سبحانه وذكرٌ له عَزَّ وجَلَّ، وهو كل المطلوب من المخلوق وما يقدر عليه حتى لو كان في الحضيض الأدنى الَّذي لا يصلح رمزاً، وليس على وجه الخُصوص رمزاً له عَزَّ وجَلَّ، ولا بد من قفو أثره إليه سبحانه حتى أصوله القديمة، فليس هناك ما لا يسبِّحُ الله جَلَّ جَلاله، ويمكن القول إذاً إن التّسبيح هو جِذْرُ الوجودِ ذاتَه، فبدونه يتلاشى المَخلوق إلى لاشيء، إلَّا أن الإنسان الدّنيويّ لا يفهم ذلك ويميل إلى اعتبار الأشياء الأرضيّة حقائق مستقلّة بذاتها، ذلك أن عِلْم اليَقِين لم يعد يجري في عقله بما يكفي كي يعي جانبه الجوهري الأسْمَى الَّذي لا يَكُفّ عن التّسبيح.

وباستثناء عالم الحَقّ يمكن اعتبار العوالم الثلاثة الدُّنيا بمثابة عالم واحد، ويجوز أن نُسَمِّيه «عالم الرموز»، وينطبق هذا الاسم على عالم المادّة فحسب، وهو عالم المُلك، وهو أشدُّ العوالم ظهوراً واعتياداً للإنسان، وينطوي بالتشاكل على رموز العالم الأعلى والعوالم الوسيطة جميعاً.

# الباب التاسع
## المـاء

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ...﴾ [هود، ١١: ٧]

يجـوز القـول إن العين التي تتفجَّر في مركز الفِـرْدَوس ترمز إلى الجوهر النَّقِـي الأوَّل الَّذي جُبِلَ منه هذا الفِرْدَوس إلى الوجود، ولازال يمتاح منه وجـودَه، ولكن لو أننا اعتبرنا في الجوهر بذاته كما كان قبل خلق الفِرْدَوس فلن يجوز تشبيهه بمياه تفيض من نبع بين أشياء مخلوقة سلفاً، ولكنها يمكن أن تُشـبَّهَ بـماء بحر ينطـوي في ذاته على كلّ بـذور العالم المقصـود بلا تمايز، ولـو نقلنـا هذه الصِّفـة إلى مقام الجوهر ذاته الَّذي يسـمو عـلى كلّ مراحل الخلـق لبقـي على ما هـو في سرمديَّته، ويَصِـحّ قول إن عيـون الماء انعكاس للجوهر حيث إنها منبع كلّ شيء كان، وتعكسها البحار بلانهائيّتها وكمالها وصمديّتهـا. والمحيط من بين كلّ الظّواهـر الأرضيّة هو الَّذي يعكس هذا الجانب من الحَقّ، ويُذكِّرنا «بالمحيط» سـبحانه، أما في الآية الكريمة فليس المحيـط هو الماء بل العرش، أو هو على الأقل متعلِّق بجانب الإحاطة بكلّ مـا خَلَقَ عَزَّ وجَلَّ، وأما الماء فإنه الجوهر النّقي الأوَّل للخَلْق الَّذي انطوى على وحدة لا تنفصم تشـتمل عـلى كلّ بذور العوالم الثّلاثـة المخلوقة، وقد ذكـرت التّـوراة هـذا الماء ذاتـه، فيقـول سـفر التّكويـن «وروح الله يرفُّ عـلى وجه المـاء» وقال فيما بعـد «وليكن فاصـلاً بين مياهٍ وميـاه»، ويقول

القرآن الحكيم ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ...﴾ [الأنبياء، ٢١: ٣٠]، وهذا التّقسيم هو أصل البحرين الَّذين ذكرناهما سلفاً، وقد تكرَّر ذكرهما في القرآن الكريم، فالبحر الفُرات في السّماء هو عالَم المَلَكوت والرّوح، ويُرمَزُ به إلى المياه العُليا بالسّحب المحمَّلة بالمَطَر، والتي يهطل منها الماء ليضفي الحياة على الأرض القاحلة، فعالَم الرّوح يَجود على عالَم الجَسَد ببركاته، وقد أشارت سورة الفُرقان بهذه الرّمزيَّة إلى قُدرة المَطَر كتذكِرة بالحَقّ عَزَّ وجَلّ، ﴿... وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً ﴿٥٠﴾﴾ [الفرقان، ٢٥: ٤٨-٥٠].

والبحر المالح هو عالَم المَلَكوت الَّذي ينطوي فيه عالم المُلك، ويُناظِر في الكون الأصغر عالَم النّفس الَّذي ينطوي فيه الجَسَد[34]، ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً...﴾ [الفرقان، ٢٥: ٥٤]، والماء العَذب هو العنصر الَّذي يَتماهَى معه المتوضّيء في شعيرة الوضوء، ويمكن أن يُتّخذ تمثيلا للطّهارة الأوّلانيّة لطبيعة الإنسان، فالوضوء تَذكِرَةٌ بالكَمال الإنساني. ويمثِّل الماء في الأن ذاته التّوحُّد مع بَرَكَةِ الطّهارة التي هي صفة المياه العليا للبحر الفُرات، كما يمثِّل التّوحُّد مع جوهر العالم المخلوق ذاته، ويمثِّل الهويّة الأسْمَى قبل كلّ شيء، فالمَخلوق يغرق ويفنى في الماء اللانهائى لوحدانية الحَقّ عَزَّ وجَلَّ، وحقاً

---

(٣٤) وذكر القرآن الحكيم كذلك إن الله تعالى ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن، ٥٥: ١٤]، وفيما يتعلق بالطهارة فعنصر التراب بديل للماء في التيمم في بعض الأحوال، فهو أيضا يمثل الطهارة الأولى، أما اختلاف المعنى الرمزي بين العنصرين فيمكن القول إن الأرض تستقي صلابتها من عنصر الخلود، لكن الماء يستقي سيولته من اللانهائية.

هـذه هي المياه الحقيقيّـة، وليس عنصر التّراب إلَّا ظلّاً شـاحباً للماء، ثم إنه لا يصـحّ الظَّن أن الإنسـان هـو الَّذي اختار هـذا العنصر ولـذا رمز إلى ما يرمـز إليه لأنـه يُطَهِّر ويروى الظَّمأ، والحقيقة على عكـس ذلك، فإنه يُطَهِّر ويـروي الظَّمأ بصرف النَّظَر عن إرادة الإنسـان، فقد كان ولا زال الجوهر النَّقي الَّذي يروي كلّ الشَّـهوات، ولذا كان ينطوي على القُدرة على تذكير الإنسان بالله عَزَّ وجَلّ دون أي قصد منه.

# الباب العاشر
# خالق الأزواج كلها

﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يس، ٣٦:٣٦]

هناك أيضاً رمزيّة مزدوجة بالإضافة إلى رمزيّة الأشياء المنفصلة بذاتها وهي رمزيّة الأزواج، أي الشّيئان اللّذان يُكمِّل أحدهما الآخر، أحدهما ذكرٌ فاعلٌ والآخر أنثى منفعلة بشكل نسبي، وحيث إن الخلق قد تمخض عن مشيئة الحَقّ بأن تنعكس صفاته على ماء الكون، وقد يعنى تسبيح «الَّذي خَلَق الأزواج كلّها» أنه جَلَّ وَعَلا قد جعل من نوره انعكاسات شَتّى تخلق أزواجاً، أي إن الإشارة هنا إلى الواحد سبحانه في جَلاله وجماله وفي عطائه ومنعه، وتنتمي بعض أسمائه الحسنى سبحانه إلى الصِّفات الجلاليّة وينتمي بعض آخر منها إلى الصِّفات الجَماليّة[٣٥]، فبعض أسمائه الحُسنى صفات جَلال وبعضها صفات جَمال، ويعين كلاهما على أن الواحد في واحديّته عَزَّ وجَلّ صَمَدٌ تجتمع فيه أعلى صفات الأزواج الإنسانيّة التي يرمز إليها آدم وحوّاء[٣٦] عليهما السّلام، والرّموز المزدوجة على شاكلة الصَّليب وخاتم

---

(٣٥) ويتحدث الشيخ عبد الكريم الجيلي عن صفات "الكمال والجلال والجمال". ولكن الشيخ أبو بكر قد جعل "الكمال" صفة لكل من "الجمال والجلال" في الباب التالي، ولا ضرورة في سياق الرمزية الحالية إلى الإشارة لها جميعاً حتى لا يعتبر قراء أدبيات التصوف أن هذا نقص أو تقصير من الكاتب. المترجم.

(٣٦) ويكمن تفسير هذا المعنى في الأسماء العربية ذاتها، فالقيمة العددية لحروف الاسمين (١+ ٤+ ٤٠+ ٦+ ٨+ ٦+ ١) تساوي ٦٦، وهو ذاته مجموع قيمة حروف الاسم الأعظم "الله" (١+ ٣٠+٣٠ ٥).

سـليمان، ونعتبر معها في التّناظرات بـين العناصر مثل مزدوجة النّار والماء، والحَـقّ إن النّار لن ترتفع والصَّليب لن يقوم ولن يعلو في الأرض شيء إلَّا بفضـل تعـالى المولى عَـزَّ وجَلّ، كما أن المـاء لن يغمـر الأرض بكاملها ولن يكـون عـلى الأرض شيء رأسيٌّ ليتقاطـع مـع الأفقـي إلَّا بفضل السّـكينة البالغـة والكمال السّـابغ في الجَمال الرّبَّاني، وهو جَـلَّ جَلاله خَالِق الأزواج كلّهـا، وكلّ زوج منهـا رمز له جَلَّ شـأنه، ويجوز أن تُفهَـمَ كلمة «زوج» لا عـلى مخلوقـين منفصلين بل أيضـاً على أية هويـة لها جانبين. والحَـقّ أن كلّ طَـرَفٍ له جانبين في الفعل والانفعال، فالزَّوجة على سـبيل المثال منفعلة في علاقتها بزوجها وفاعلة في علاقتها بطفلها. ويُختار الاسم الرّبَّاني «الكريم» أحياناً بدلاً من «المُنْعِم» ليكون الشّـطر المنفعل لشـطر «الجَلال» الفاعل في اسـمه سـبحانه «ذو الجلال والإكرام». لكن اسمه «المُنْعِم» يصبح فاعِلاً في علاقته باسم «الوصي» الَّذي يعتمد نعمته السّابغة.

أما الأزواج المخلوقة «مما لا يعلمون» فلا بد أن تُفهَمَ على أنها الأزواج التـي تحتويهـا الفراديس المختلفة في العـالَمَ الآخر، ولكنها قـد تعني كذلك أزواجاً لا يعلم الإنسان لها غير اسم واحد، فالزّوجين قد لا ينتميا إلى مقام واحـد من الوجود، فقد يكون أحدهما في هذا العالم والثّانى في العالم الآخر فقد شُـبِّهَ العالمين ببحرين، وهمـا مزدوجة واحدة، ويتشـاكل معهما الرّوح والنّفس اللَّذان يجتمعان في القِدِّيس لكي تمثِّلا طبيعتيه السّماوية والأرضيّة، وهمـا قبل ذلك ذكر لمـن خلقهما جَلَّ جَلاله، ولذا شـاع في العلوم والفنون التراثيّة تصوير المزدوجات.

# الباب الحادى عشر
## رمزية الأزواج

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾

[القدر، ٩٧: ١– ٥]

إن أعلى مرتبة من «الأزواج المعروفة» هي مرتبة الزّوجين الإنسانيَّين، ويؤخذ التّوحُّد بين الرّجل والمرأة رمزاً للتّناسق والاتفاق كوجهين متكاملين للحَقّ، ويعبرُ اسمُه «السّلام» عَزَّ وجَلّ عن ذلك التّناسق، ولذا قال الرّسول عليه الصّلاة والسّلام الزّواج نصف الدِّين، ولو عبَّرنا عنه بمعنى أدنى كرمز لطبيعة القَداسة لقلنا إن نفس القِدِّيس قد اقترنت بروحه، في حين أن نفس الإنسان الدُّنيويّ لن تقترن بروحه. ونجد تفسيراً لطبيعة هذا القِرَانِ في سورة القَدْرْ، والتي لو فُسِّرَت بمرجعيّة الكون الأصغر لكانت ترنيمةً لزواج نفس القِدِّيس بروحه، وليلة القدر هي نَفْسُهُ التي تتنزَّلُ الرّوح عليها وحدها تحف بها القُوى الملائكيّة. أمّا في حال الرّسول عليه الصّلاة والسّلام فقد كان القرآن وليداً لزواج نفسه بروحه، كما جاء في حالة أخرى هي مريم وكان وليدها المسيح عليهما السّلام.

وحينما يكون طرفا الزّواج على مقاماتٍ مختلفةٍ من الوجود مثل الرّوح والنّفس أو مثل السّماء والأرض فإن الأعلى منهما ذكر، ولكن السّماء والرّوح

ذاتهما أميَلُ إلى الجانب الأنثوي وينحوا نحو الجَمال والعطاء والمَحَبَّة الحنونة التي يمثِّل لها القرآن الكريم «بالحوريّات»، ومن الناحية العمليّة قد يضطر السّالك أحياناً إلى أن يتبنى مع الآخرين ادعاء أن نفسه تنشط وتتحرك في طلب الرّوح ولكن الرّوح تظل سلبيّة ساكنة، ولذلك فحين يتحدَّث عن المحبّة يعبِّر عن سِمات مخصوصة بالرِّحلة الرّوحية في صيغة أنثويّة، فنجد كثيراً من الحكايا القديمة على شاكلة قصَّة أمير أراد أن يتزوَّج أميرة وكان عليه أن يتغلَّب على مصاعب شَتَّى قبل أن يصل إلى مراده، أمّا إذا كانت غاية الحكاية هي البحث عن الكمال الإنساني فقد ترمز المرأة لا إلى الرّوح فحسب بل إلى الجَمال الرّبَّاني ذاته، ولذا كان الجانب الأسْمَى للمرأة في الشّعر والقصص العربي يتمثَّل في امرأة اسمها ليلى، وهو اشتقاق من ليل، فاللَّيل رمز لكمال الجَمال الفَعَّال كما أن النّهار رمز لكمال الجلال الفعَّال، ولذا كانت غاية المُحِبّ أقرب إلى أن تكون شوقاً إلى الحَقّ ذاته لا إلى ميله إلى شهود عَيْن اليَقِين، فالفناء فحسب هو الَّذي يسعى إليه السّالك حتى يكون قرين محبوبه.

# الباب الثانى عشر
# الشمس والقمر

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً...﴾[يونس، ١٠: ٥]

يشيع في تعاليم التّراث ذكر مزدوجة الشّمس والقَمَر، وقد ذكرنا سلفاً أن الهِلال رمز القِدّيس الوَلِي، وله جانب منفعل في سعة الاستقبال وجانب فاعل في جلاله المَلَكِيِّ، والقَمَر منفعل تماماً في استقباله للضِّياء. وترمز الشّمس إلى فاعليّة كمال الجلال، ويرمز القَمَر إلى منفعليّة كمال الجَمال.

وحيث إن النّور عموماً من تجليات العلم الرّبَّاني، فالنّهار رمز للعالم الآخر أي عالم العلم، والليل رمز للدنيا أي عالم الجهل. وتناظر الشمس التي تضيء النّهار الرّوح التي تضيء العالم الآخر، ويناظر القَمَر الإنسان الحَقّ الَّذي ينير هذا العالم[٣٧] ولو اعتبرنا في الكون الأصغر أي النّفس التي يرمز إليها اللَّيل فإن القَمَر يُمَثِّل عَيْن اليَقِين، وهو نور النّفس الحَقَّة، أما الضِّياء المُباشِر الَّذي يَشِعّ من الشّمس على القَمَر فيرمز إلى البَصيرة التي تتوسَّط بين قَمَر القَلْب وظَلام النّفس، وكما يلقي القَمَر نوره على مختلف الأشياء الماديّة التي تعكسها على غيرها بحسب قدرتها فكذلك تغمر البَصيرة مَلَكات العقل، ولو كان قد استوعب المذهب فسوف يتوهَّج بالشُّكر والحَمْد، ويعني هذا النّور أن تعاليم المذهب العقليّة قد انصهرت إلى عِلْم

(٣٧) ولا يرمزالقمر إلى الإنسان الكامل لهدايته غيره بالنور فحسب بل كذلك لطهارته، ونجد في ذلك تفسيرا لسورة طه التي تصف النبي عليه الصلاة والسلام، ويقول المفسر إن حرف الطاء يدل على الطهارة وحرف الهاء يدل على الهدى، ولو جمعنا القيمة العددية للحرفين (٩+ ٥) لكانت ١٤، وهو رمز كمال القمر.

اليَقِين، وسوف نرى في ذلك رغم تحوُّل الدُّنيا من حسنٍ إلى سيِّءٍ بما يوازي الانحطاط العام في نفس الإنسان عبر العُصور، ولكنها لم تتغيّر أصوليّاً حتى اليوم، فلازالت القَوانين الطّبيعة الجوهريّة تُناظِر الإنسان الكامل، والّذي اجتمعت فيه شَمس الرّوح وقَمَر القَلْب، ومن ثم يعكس هذا النّور لينير ظلام النّفوس، وهو تصوير آخر للمثل الّذي اقتبسناه سلفاً «إن فساد الأفضل يجعله الأسوأ»، فتراتب يضع الكون الأكبر في بنية الوجود أسفل الكون الأصغر، ولذا كانت تَحدُّ من قدرته على الانحطاط، أما السّالك فيرى أن طبيعة العالم لا بد أن تُقَدَّسَ بالنّظر إلى عدم فسادها النسبي، ورغم أن الرّوح والقَلْب محتجبان عنه فإن الشّمس والقَمَر باقيان ذكراً لهما، وهما اثنين من «الآيات» التي تتجلَّى في الآفاق، ﴿ **سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ** ... ﴾ [فصلت، ٤١: ٥٣]، وذكر الكون الأكبر قبل الأصغر له مغزى عميق، وهو ما يبدو أوَّلاً للسّالك قبل العلامات المُناظِرة له في الكون الأصغر، إذ إن التّعرُّف على العلامات في الآفاق هو أحد معالم عِلْم اليَقِين، في حين أن إدراك العلامات في النّفس يعنى التحقُّق بمقام أعلى من مقامات اليَقِين.

وقد يتساءل البعض كيف يتأتَّى للإنسان الدُّنيَوي القول بأنه قد حاز نور عِلْم اليَقِين إذا كان في أوَّل أمره لم يرى نور عَيْن اليَقِين، والحَقّ إن العلم لا يستقلّ بذاته عن العين، ويستحيل أن يحوز أحد يقيناً من مقام العلم إذا لم يكن فيه بصيرة تمدّه بيقين أسْمَى حتى لو كانت العين ذاتها محتجبة عنه، ولا تلقى البَصِيرة نوراً على «المعروف والمطلوب» في الدُّنيا للإنسان الدُّنيَوي، فهو يتَّخذ الأشياء والوقائع كحقائق قائمة بذاتها تستقلّ تماماً

عـن العالم الآخـر، ويناظر الغياب الكامل لعلم اليَقِـين اللَّيالى الحالكة التي لا بصيـص فيهـا لنور سَـماوي، كما أن حضـور عِلْم اليَقِين بكامله يشـترط الحضـور الكامل لقمر الباطن. وبين هذين النقيضين درجات لا تُحصى من عِلْـم اليَقِـين التي تعتمد على المعرفة البَصيريّة كما يرمـز إليها نور القَمَر قبل شُروقه أو حين يكتنفه السَّحاب.

ولا بد أن نتذكَّر أن التّناظر في الرَّمزيّة تَشَاكُلٌ بالاستعارة، أي إنه ليس تشـاكلاً لأمريـن من نفـس النّوع، ولذا أحيانـاً ما يبدو انفصـالٌ في التّناظر بينهـما حينـما يكون الرَّمـز والمَرموز إليـه من عالمين مختلفـين في بنية الوجود وتخضعـان لأحـوال مختلفـة، ولكن الأمر ليـس كذلك في حالة نـور القَمَر كرمـز لعلم اليَقِين، فالاختلاف هنا في أحوال الحياة الماديّة التي ينتمي إليها نـور القَمَر كما ينتمي إليهـا عالم النّفس الَّذي ينتمي إليـه عِلْم اليَقِين، وهذا اختلاف طفيف نسـبيّاً، فـكلا العالَمين عالم واحد فحسـب في المعنى المُعتاد أي الدُّنيـا وهذا العـالم، وكلاهما خاضع لذات الأحـوال العامّة التي تحكم الدُّنيـا. وأحـد هذه الأحوال هـو الزّمن، فعلـم اليَقِين مثلاً يزداد رسـوخاً في العقـل مع الزّمن، ويُرمَز إليه بشـحوب ظـلام اللَّيل تدريجيّاً قبل شُروق القَمَـر، وهنا يظهر انفصـال التّناظر بين القَمَر ذاته وعَيْن اليَقِين في اختلاف أحوالهـما، فالقَمَر من هذا العالم ويخضع للزَّمـن، في حين أن عَيْن اليَقِين من العالم الآخر ولا تخضع للزَّمن بتاتاً، فهي فوقه وفيما وراءه، ورغم أن شُروق القَمَـر رمز لعَيْن اليَقِين فـإن بزوغه البطيء فوق الأفق ثم زيادة نوره رويداً رويـداً لا يَصِحّ أن تؤخذ رمزاً لظهور عَيْن اليَقِين في النّفس، فهناك عقبة في الاتّصال بين قول العلم وشـهادة العين، فـلا يمكن القول إن الأوَّل يؤدِّي

آلياً إلى الثّانية، فالتّحقق بعَيْن اليَقِين يعني الإفلات من الزَّمن ومن الشّروط العامّة التي تحكم الدُّنيا، فهذه الأحوال تعني «أقطار الأرض» التي أشارت إليها سورة الرحمن، ﴿ يَامَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴾ [الرحمن، ٥٥: ٣٣]

وحيث إن السّالك لا يحتكم على وسائل النّفاذ من أقطار الأرض ناهيك عن أقطار السّموات فقد يسأل سائل عن «السّلطان» الَّذي سوف يمكنه من النّفاذ، أو ما الَّذي سيجعل عَيْن اليَقِين تنفتح في قلبه؟ وفتح العين سر ومعجزة، فلا يحدث إلَّا بمشيئة «الرَّحمة الرّحمانيَّة»[38] التي تَتَدَخَّل فقط عندما يبلغ الميل إليها عند السّالك مبلغاً كافياً، إلَّا أن السّعي إليها لا يكفي لتغيير الحال حيث يَظَلّ المَيل سلبيّاً عند الرَّحمة، وهناك مغزى من ورود اسم الرّحيم بعد اسم الغَفور في القرآن الحكيم، فالغُفران يجعل الرّغبات الرّبّانيَّة تعود إلى موضعها الصّحيح في نفس السّالك، وحضورها في مركزها هو ما يهمّ أكثر من أي شيء آخر في تحقيق المَيل اللّازم، ثم تعين رحمة الرّحيم عَزَّ وجَلّ على أن يعبر السّالك إلى ما وراء أصفاد الأرض.

ولا ينسحب السّالك من أحوال هذه الدُّنيا إلَّا «بالموت»، ويقال إن نفس الإنسان السّاقط لا بد أن تَمُرّ منه حتى تولد نفس جديدة، وربما كان ذلك هو معنى الموت والميلاد من جديد الَّذي يفرِّق بين القِدِّيس أو الوَلي وغيره من النّاس، ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا... ﴾ [الأنعام، ٦: ١٢٢]، ويطلق

---

(٣٨) ويقال إن "الرحمة الرحمانية" تلف الكون بأجمعه دون أية تجليات منظورة.

الصّوفيّـون لفـظ «الفَنـاء»[٣٩] عـلى هذا الموت الَّـذي يصل به السّـالك إلى قَمَـر نفسـه الباطن، ويُصَـوِّر هذا التّفريـق الأوَّل ما يتبعه مـن نِعَمٍ أعظم، ويذكـر القرآن الحكيم ثلاث فناءات تناظر درجات اليَقِين الَّذي وصل إليها إبراهيم عليه السّلام، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ۝٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ۝٧٦ ﴾ [الأنعام، ٦: ٧٥-٧٦]، والوعـي بظـلام اللَّيـل بمثابة اسـتنارة حينـما تُضاهى بدرجة الوعي الَّذي سـبقها، وتنم عـن بداية تَحَقُّق عِلْم اليَقِين، فقد كانت رؤية الكوكب الَّذي يعكس ضوء الشّـمس المُباشر كالقَمَر يوحي بمذاق مسـبق بعَيْن اليَقِين، ويُعَـدُّ هذا المذاق جزئيّاً رغم أنه يُحْدِثُ معرفة روحيّة في اللَّحظة تُسَمَّى في العربيّة «حالاً» وليست «مقاماً»، والمقام هو التَّحَقُّق الكامل بمرتبة روحيّة لا تزول إلا بالفَناء في مرتبة أعلى، ويرمـز الظَّلام الَّذي يتبـع أفول الكوكب أوَّل مقامـات الفَناء، وهو الموت الَّـذي يتبعه ميلاد جديد في المقـام الأوَّل وهو مقام القَلْب. وقد قالت الآية الكريمـة ﴿ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ ﴾ [الأنعـام، ٦: ٧٧- ٧٨]، كما جاء في سـورة يس ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس، ٣٦: ٣٨]، ويقول التّفسير «وتستقر شمس الرّوح في مُسْتَقَرِّها» وهذا مقام الحَقّ في نهاية سَفَرِ الرّوح، «وهو مقام رَبّ العِزَّة» والَّذي يَصُدُّ كلَّ شيءٍ عن حضرة واحديَّته، وهو المانع القَهّار العليم الَّذي يعلم حدَّ كمالِ كلّ سالك في نهاية رحلته.

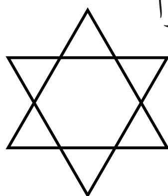
(٣٩) ولفظة "المحو" التي ترادفها. المترجم.

# الباب الثالث عشر
# خاتم سليمان

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً...﴾

[البقرة، ٢: ٣٠]

رغم أن كلّ شيء على الأرض انعكاس مباشر لحقائق أعلى إلّا أن أشَدّ الانعكاسات المُباشرة هي التي تُعَدُّ رمزيّة حقاً، وتنتمي هذه الانعكاسات إلى صنفين، أحدهما مثاله أشياءً وُجِدت على الأرض منذ بدايتها ولا تدين بشيء لتدخلات الإنسان الدُّنيَوي، والثّاني هو الَّذي أوحِيَ بمثالاته في عصر متأخِّر.



ويُشكِّلُ المثلث الأسفل في رمز خاتم سليمان رمزاً حقيقيّاً، ولكنه لا يمثِّل انعكاساً مباشراً لحقيقة أسْمَى يمثِّلها المثلث الأعلى بل لأنه يبين بانقلابه أن الرَّمز دوماً هو انعكاس مقلوب لمثاله. ويجوز ضرب مثل للانقلاب بعالم الشّهادة الَّذي هو انعكاس مقلوب لعالم الغيب، ويمكن أن نرى برهان انقلابه في حقيقة وجود الإنسان ذاته، والَّذي كان أوّلاً خليفة الله تعالى في الأرض ويبدو أخيراً أدنى المخلوقات في تراتب الخلق، ويناظر المثلث الَّذي تشير رأسه إلى أعلى في خاتم سليمان الخالق سبحانه الَّذي انبثقت عنه الأشياء كافّة، في حين يرمز المثلث الَّذي اتَّجَهَت رأسه إلى أسفل إلى الإنسان الَّذي هو منتوج الخلق وغايته، وربما استنتجنا

مـن باب «رمزيّـة الأزواج» قانون الانعكاس العام هـذا، ونتذكَّر أن طرفي الـزّوج المتكاملان ليسـا حتماً على مسـتوى واحد من الوجـود، مثلما يمثِّل البحرين الرّوح والنّفس أو السّـماء والأرض، وينقسم كلّ زوجين إلى أعلى وأسـفل، ونلاحظ في هذه الحالة أن الطَّرَف الأنثوى للزّوج الإنسـاني رمز للطَّـرَف الذُّكوري، فالنّفس انعكاس للرّوح مثلما كانت الأرض انعكاسـاً للسّـماء، وقـل مثل ذلـك عـن كلّ الأزواج التي يعلو فيهـا مقام طرف على آخـر، والعكـس كذلـك صحيـح، أي إن الرَّمـز ومـا يرمـز إليـه مزدوجة متكاملـة يكون فيهـا الرّمز أنثويّاً على الدّوام، وتقابـل المنفعليّة الفاعليّة كما تقابل الأنثويّة الذُّكوريّة وكما يقابل السّـلب الإيجاب، وهو ما يعبّر عنه رمز خاتم سـليمان الَّذي يصـوِّر انقلاب الرَّمز على ما يرمـز إليه. وهكذا يمكن أن نرى أن تناسـق الكون مبني على قانون الانقلاب والاتِّزان الـمُـتَـكامل والاتِّفـاق المتبـادَل بين عالم أعـلى هو المثال وعالم أدنى هـو الرّمز، أو يمكن بالأحـرى أن نـراه قانونـاً قـام عليه الكون الـكلِّي ذاته، حيـث إن الانفعال السّـلبي المنفعل يواجه المطلق الإيجابى الفاعل، ولـولا ذلك ما وُجدَ العالم أصـلاً، وتفرض هيمنة هذا القانون في كل طباق الوجود انعكاس الشـيء في الماء بصورة مقلوبة.

ويمثِّل الإنسـان الكامل أعلى رمز عـلى الأرض، وعلينا قبل أن نتناول طبيعته التي يعبِّر عنها خاتم سـليمان بالمثلـث المَقلوب أن نُعَرِّج على جانب آخر من مسألة الانقلاب، فلا بد من الاعتبار في الخاتم مرَّة أخرى من حيث أسـمى معانيه، أي كرمز لصفات الجلال والجمال الرّبَّانِيَّيْن، فتتمثَّلُ صفات

الجلال في المثلث الأعلى بقوه الحقّ القاهرة بما فيها «الأحدية» ذاتها باعتبارها فاعلة(٤٠)، أي مهيمنة يفنى كل ما كان غيرها، وقد سألت سورة غافر ﴿لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ وَرَدَّتْ على السُّؤال فوراً ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر، ٤٠: ١٦]، فإن بَهَاء جلاله يجعل من المستحيل أن يقف في مقامه شيء، ثم إنه عَزَّ وَجَلّ لا يُضاهى فهو الملك سبحانه، ونذكر في سياق ذلك أن المثلث الـمُتَّجِه إلى أعلى في خاتم سليمان وقائم الصَّليب كلاهما صورة للنّار، أضف إلى ما عرَجنا عليه سلفاً عن العنصر الرّأسي كرمزٍ لتسامي الجلال الرّبَّاني أن النّار لن تحرق ما لم تكن تجليّاً «للمُمِيتِ» سبحانه، وهو ما يمثِّله المثلث الـمُتَّجِه إلى أعلى، أما المثلث الـمُتَّجِه إلى أسفل فإنه يميل عند الإنسان الكامل إلى التَّوسُّع الأفقي في اتّجاه قاعدته، وقد ذكرنا سلفاً أن الأفقي رمز للنِّعمة والجَمال الرّبَّاني، والغِنَىَ أحد جوانب نعمة الكَرَم التي تَحْتَلّ موضع الجَمال في اسمه «ذو الجلال والإكرام» سبحانه، ويجوز القول إن جانب جلاله سبحانه وأحديته تأتي في صيغة المفرد، فيكون الجانب الْمُناظر لها في الجَمال والرّضوان بالجمع في نعمته وكرمه وتعدُّد أسمائه الحسنى عَزَّ وَجَلّ، ولا بد لذلك أن ينعكس ذلك على كلّ الأزواج في الكون، وقل في ذلك ما قيل

---

(٤٠) و"الأحدية" هي الجانب الأسمى لجوهر الذات، بينما تعني "الواحدية" الذات كحاصل جمع للصفات الأخرى، ويجوز قول إن للواحدية وجهين هما الكلية والفرادة، فالمخلوقات تعكسها بالقدر الذي يكون كلٌ منها كلاً متكاملا كما أن كلٌ منها فريدٌ في ذاته، ولذا كانت مصدرا للتعدد اللانهائي والتفاضل الذي أدت إليه الكيانات المفردة، وتتعالى الواحدية جوهريا على الجلال والجَمال، ولكنها يمكن أن تُدرج في الجلال بموجب أنها تستبعد كل الجموع على مستوى ذاتها، إلا أنها تعني الكثرة رغم افتراضها على الطباق الأدنى من الوجود. راجع الشيخ إبراهيم عز الدين Titus Burckhardt, Du Soufisme, pp. 30-34.

سـلفاً عن رمزيّة الانقلاب، ولا يصحُّ للرَّمز أن يكون منفعلاً وسـلبيّاً تجاه حقيقتـه بل لا بد مـن أن يكون فضفاضاً وجامعـاً، ويتَّخِذ هذا الجانب من الانقـلاب التعدُّد في مواجهة التّوحيد، وتوسُّـع التّحليل في مواجهة تركيز التّركيب، وتصوُّر المَقولة الصّوفيَّة أن «النّور قد رأى نفسـه قبل أن يقع على المرآة التي تعكسـه منعكسـة كطـاووس ناشرا ذيلـه»، فالنّـور يرمز بتركيز بياضـه إلى سِرّ الأحدية والجـلال، وقرينته هي النّعم الرّبّانيَّة التي لا تُحصى، والتـي يرمز إليها الطـاووس[٤١]، وهكذا ينمُّ عن الرَّمـز الحَقّ الَّذي يحاول تقليد الجَمال الرّبّانِي جانباً فآخر من الجوانب التي تنداح جميعاً فيما ترمز إليه، وهـو الأحدية الجامعة، ونمثّل لذلك برمز الإنسـان الكامـل الَّذي تتوهَّج نفسه بنور البَصيرة في مركزه وتشعُّ إلى كلّ الاتّجاهات في محيطه حتى يكون واسـعاً بما يكفي ليعكـس كلّ الحقائق الخفيَّة لِـجُمَّاع عـين القَلْب، وتتجلَّى هذه الانعكاسات على شكل فضائل تُزَيِّنُ النّفس، وهي أشبه بالعيون التي ترتسـم على ذيل الطّاووس، كما تشاكلُ الحقائق الرّوحيَّة العُليا ذاتها، وهي ترمز فوق كلّ شيء إلى الأسماء والصِّفات الحُسنى. وهناك مثال آخر يوازيه في النِّعـم الرَّبّانيَّـة عـلى اختلافهـا في العالم ذاته، وتتجلَّى هنا سـعة الإنسـان الكامـل في مواجهـة ضيق المخلوقات الأرضيّة، فهـو لا ينتمي إلى الأكوان الصُّغـرى بل إلى الكون الأكبر الَّذي يحيط بها جميعاً، وتناظر صفات مختلفة في نفسـه يرمز كلّ منها إلى صفة رَبّانيَّة، في حين ترمز نفسه إلى الذّات العلية

---

(٤١) ويذكرنا ذلك بقولِ إن الرجال في الفردوس سيرتدون مسوحاً وسوف تكون النساء عاريات، ويكمن تفسير ذلك في أسمائه الحسنى "الباطن" و"الظاهر" اللذين يشيران إلى كمال جماله سبحانه.

التـي تنضوي فيها الصِّفات كافَّة، ويشـهد القرآن الحكيم على أن الإنسـان خليفة لله تعالى على الأرض، وتقول التّوراة مثل ذلك خلق الله الإنسـان على صورتـه، وهو مـا يعني بقدر محدود أن كلّ مخلوق عـالم صغير بذاته يرمز إلى الحَـقّ عَزَّ وَجَلّ، وقِسْ على ذلك مُجْمَل الجماعة برمَّتِهـا، فَصِفَات الرَّمز الحَقّ جميعاً تتجلَّى في الإنسـان الكامل، فهو فحسـب بين المخلوقات الَّذي يعرف عظمة الحقائق العليا بشـكل مباشر بما يجعل من نفسـه عجيناً ليِّناً قابلاً حتى يستقبل بها أكمل انعكاس ممكن، ويصوِّر المثلث المَقلوب في خاتم سـليمان هذا الكمال الأنثوي للنفس.

ويعـبر ما تناولناه حتى الآن عن سـلبيّة الرّمز تجاه مـا يرمز إليه، إلَّا أن خاتم سـليمان في ذاته يشـتمل عـلى العلاقة بين جوانب متناظـرة للحقائق الأعـلى، فيمثِّـل المثلـث الأعـلى أحدية جلالـه عَزَّ وَجَـلّ ويمثل الأسـفل رضوانه وجماله سـبحانه، وسوف تمثِّل قاعدة المثلث المَقْلوب سعة الإنسان الكامل الَّذي يتوجَّه إلى السّـماء في خشـوع يُناظر كـمال الانفعال، ومكمله الإيجـاب هـو جـلال تعامله مـع مملكتـه الدُّنيا، ويرمـز إليهـا رأس المثلث المَقلوب، ويصِّور هذا المثلث الإنسـان المسـلم الكامل الَّذي وُصِفَ أحياناً بأنه عروسة السّماء وعريس الأرض.

إن الكمال الفعَّال للإنسان الكامل كملك للعالم هو نتيجة لكمال قابليّته، فسـعة نفسه تعكس كلّ احتمالات الفعل، ويستلهم من ذلك اختيار أنسب العمل للحال، أما الإنسان الدُّنيوي الَّذي لا تعكس نفسه المثالات المتعالية فلا سبيل له إلى ذلك، ويضطرُّ إلى الرُّكون إلى تجاربه السّابقة، وهكذا تحمل

أعـمال حـاضره أثراً كصـورة ثابتة مـن أعمال ماضيـه، أي إن أعماله تتسـم بالنمطيّـة وقيود العادة التي تمنعه من التلاؤم مع اختلاف الأحوال الحتمي في تغيُّر الزَّمن، أما الإنسـان الكامل فـلا حاجة به إلى الماضي وذكرياته التي توصـف «بالذّاكـرة الأفقيّة»، فإن «الذّاكرة الرّأسـيَّة» تلهمـه بالذِّكر، وهو قـادر عـلى العمل عـلى منوال الخلـق ذاته اسـتلهاماً من مصـدره الرُّوحي، ويصبـح هذا العمـل خلقاً جديداً حقّاً يناسـب أحوالاً بعينهـا دون حاجة لمرجعيّة سـابق الأعمال، والتي لا أثر لها نظراً لتلقائيَّته، ويعمل كلّ شيء كما لـو كان يعملـه لأوَّل مرة، وهكـذا تتردَّد أصداء جـلال الوحدانيَّة في عمل الإنسـان الكامـل. وبينما كان المثال هو غاية الخضـوع وينطوي على مُختلَف الاحتمالات فإن عمل الإنسـان الكامل هو نتيجة خضوعه، والَّذي يشتمل على كل احتمالات العمل.

ونأخـذ مثالاً أخيراً على التّشـاكل، فلو كان المثلـث الأعلى رمزٌ للعناية الرَّبّانيّـة فإن رأسـه سـوف تكـون المشـيئة الرَّبَانيّـة، والتي يعبِّر عنها اسـم «القـادر» تَقَدَّسَ وتَعالَى، وسـوف تكون قاعدته هي الـضَّرورة الرَّبّانيّة، أو هـي «أم الكتـاب» من الآيات المحكـمات، وهو الكتاب الَّـذي يحتوى على مصـير كلّ شيء كان، ويجـوز أن يُسَـمِّيه الإنسـان من وجهة نظـره «كتاب المَصائـر». والمَصائر سـلبيّة أمام المَشـيئة الرَّبّانيّة التي هـي غايتها، ولذا كان الإنسـان الكامـل سـلبيّاً أمام المصـير، ويتمثَّـل في قاعدة المثلـث المَقلوب، وهـو ما يعنيه الإسـلام «بالإحسـان»، وهـو أعلى مراتب الخضـوع وليس مجـرَّد الخضـوع للشّريعة «بالإسـلام» الَّذي قـد يناقض التّسـامي الرّوحي في «الإيمان والإحسـان»، بل الإحسـان المتحقِّق بكامله، والتّسليم بالمَشيئة

الَّذي هو من علامات الولاية والقَداسة، والتي لا يمكن أن تُعزى للإنسان الدُّنيـوي، أما عـن رأس المثلث المَقلـوب فهي رمز لحريّة الإنسـان الكامل النسـبيَّة في الحركـة والعمل كملك لـلأرض، ويصدق ما قيـل عموماً عن أعمالـه وعلاقتهـا بخضوعـه على جانب بعينـه من عمله، ففـي حين كانت المَشـيئة الرَّبّانيّة مّطْلَقة في المَصائر كانت حريّة الإنسـان الكامل نسـبيّة نظراً لخضوعـه للمَصـير، وكما قال أحـد الشّـيوخ «إن الحَقّ لا بـد أن يكون هو ما هو لأنه يشـاء ذلك، والإنسـان الكامل لا بد أن يكون ما هو لأنه يشـاء ذلـك»، فخضوعـه التام للسّـماء يجعلـه أكثر حريّـة من باقـى المخلوقات، وحيـث إن هذا الخضوع التام ينبثق عن معرفتـه الروحية ورؤيته للصفات الربانيـة فيمكـن أن نرى في كلمات المسـيح عليه السـلام تفسـيراً «تَعرِفُونَ الحقَ والحَقُ يحرِّرَكُم»[٤٢] يوحنا ٣٢\٨، والحق إنه كُلَّما عَظُمَ علم الإنسـان احتدت حواسه إلى ما وراء فكرة الإنسان عن الخير والشَّرّ، فالجَمال المتعالى للـضرورة الربانية تتناسـق فيه الأكوان التي ليسـت إلا ظـلا لها، وكلما قال بكامل حريته «الحمد لله رب العالمين».

إن حريَّة الإنسـان الكامل النِّسْـبِيَّة ورغبته الكاملة في أن يقوم بما يجب أن يقـوم به هي التي تُضْفي على عمله فاعليَّـة قُصْوى، وترمز رأس المثلث المَقلوب في خاتم سـليمان إلى هذا العمل التِّلقائي الَّذي يشـعُّ من خضوعه الكامـل، وكذلـك يرمز إلى عنصر المـاء، فكما يجري المـاء ويتخلَّل تجاويف الصَّخـر ويملأ كلّ الثُّقوب في كلّ لحظة من وجوده، كذلك يملأ الإنسـان

(٤٢) وتعني هذه الكلمات الحرية المطلقة التي يمكن تحصيلها من معرفة حق اليقين.

الكامل كلّ لحظة من حياته بالعمل، ويبقى في علاقته بالله سبحانه ساكناً طائعاً كسطح الماء الـمُتَطَلِّع إلى السّماء، ولذا قيل في كتاب أناشيد الطَّريق والفَضيلة «طاو تى تشينج»[٤٣] الَّـذي يُبَجِّلُه الصِّينيّون كأقدس متونهم أن «الخير الأسمى يشاكل الماء»، ويقول أيضاً « ليس في العالم ما هو أكثر ضعفاً ولا أشَدّ خضوعاً من الماء، إلَّا أنه ليس كمثله شيء في نحر الصلب»[٤٤] والماء حقّاً له تلك الخصائص لأنه انعكاس مباشر في الحياة الماديَّة لفضيلة الإسلام، والتي تبلغ في شِدَّة خضوعها أشَدُّ أشياء الأرض نفاذاً.

(٤٣) "أناشيد الطريق والفضيلة" باب ٨، تراث واحد، قيد الطبع.

(٤٤) نفس المرجع باب ٧٨.

# الباب الرابع عشر
## شجرة معرفة الخير والشر

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة، ٢: ٣٥]

لم يذكر القرآن الحكيم اسم الشَّجَرة الـمُحَرَّمة، ولكن ذُكِرَت في التّوراة «شجرة معرفة الخير والشَّرّ»، والحَقّ إن الإنسان الدُّنيوي يسترشد في عمله بذكرى تجاربه الماضية، ويَسْتقي من هذه المعرفة «الأفقيّة» إحساساً عامّاً بالـمَرغوب فيه والـمَرغوب عنه في العمل، وليس ذلك إلّا نوعاً من معرفة الخير والشَّرّ، لكن يقين الإنسان الكامل يمكِّنه من أن يغوص فيما وراء هذه المعرفة إلى اختيار العمل الكامل وليس العمل المرغوب فحسب، فحين تقول التّوراة إن آدم لم يكن يعرف الخير والشَّرّ قبل أن يأكل من الشَّجَرة فلا يعنى ذلك جهلاً منه بل يعنى أنه كان مفعماً بمعرفة أسمى ليس في تركيبها مَحَلّ لتجريب المعرفة والإحساس بالملاءمة، وتقي الإنسان من أن يصبح فريسة للتلاؤم الإنسانى الُمْشتَقّ من التّجارب، وهي معرفة الخير والشَّرّ في أدنى مراتبها، وقد كانت تلك المعرفة في أسمى حالاتها عندما تَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ هي التي أُوحى بها في الأديان المنزَّلة، وحيث إن الإنسان الدُّنيوي فاقد لعَيْن اليَقِين فإنه يميل حتماً إلى أن يصبح عبداً لعاداته، وتواجه الأديان هذه الضرورة بإقامة الشّعائر الشّرعية حتى تصبح عادات قدسيّة، وهكذا تعمل الرَّحمة الرَّبّانيّة على استخدام محدوديّات الدُّنيَوِيِّين

وسيلة للنّفوذ الرّوحي.

ويبيِّن الدِّين شأن كلّ الحقائق الروحيّة المباشرة جانبين متمايزين في المثلث المَقلوب في خاتم سليمان، ولكن الدِّين في هذه الحالة ليس مشاكلا فحسب للإنسان الكامل بل هو الإنسان الكامل نفسه بمعنى ما، كما أن الإنسان الكامل أو هو الرَّسول عليه الصّلاة والسّلام على وجه الخُصوص مهمَّته تجسيد للدِّين، فليس الجانب الأَسْمَى من الدِّين إلَّا تَسليم نفس الإنسان الكامل للسّماء ومن ثم تجريدها إلى مبادئ وتفعيلها إلى سلوك، ولا يصيب التغيُّر هذا الجانب ولا يؤثر في كليته، وتَتَماهَى فيه كلّ الأديان، فلا يستقيم مع الله سبحانه إلَّا التّسليم، ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾ [آل عمران، ٣: ١٩]، ويتحدَّث القرآن الكريم عن نفسه وعن التّوراة والإنجيل بأنها جاءت جميعاً لتوكيد ما جاء من قبلها، وهذه الهويّة الباطنة هي برهان أرثوذكسيّة الدِّين أو اتباعه لما قبله، أما من ناحية ظاهر الدِّين فإن برهان الاتباعيّة كامن في الاختلافات الحادَّة بين طائفة وأخرى، فكما أن أعمال الإنسان الكامل فريدة فإن خصائص عناصر الدِّين تلقائيّة بشكل يضفي عليها أصالة فريدة، وقد جاء في القرآن الحكيم ضرورة ذلك الاختلاف في سورة المائدة ﴿ ...لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ...﴾ [المائدة، ٥: ٤٨]، وجاء في السُّورة ذاتها أن الاختلافات جميعاً تنداح في الجانب الكُلِّي للدِّين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[المائدة، ٥: ٦٩]، وتجيء شريعة الدِّين لمكان وزمان بعينهما كما لو كانت مصباحاً يهدى في ليلة ظلماء لكي تدرأ انصياع

الدُّنيوي لشجرة المعرفة المُحرَّمة، وتفرِّق بين الخير الَّذي يُناظر دائرة الضّوء الَّـذي يلقيـه والشَّرّ الَّـذي يناظر الظّـلام الخارج عـن نطاق النّـور، إلَّا أن الإنسان الكامل لا حاجة به إلى هذا المصباح، فعنده أن دائرة الضّوء تندمج في الظّـلام الخارجـى في ضوء البـدر المكتمل، كما تمكِّنه رؤيتـه الرّوحيَّة من النّظر أوضح من الآخرين إلى جمال الشّريعة كتجلٍ للمشـيئة الرَّبّانيّة، ولذا كان تسـليمه بها تلقائيّاً تماماً، أي إنـه يتعرف عليها بيقينه فتصبح تعبيراً عن المشيئة لا لجماعة بعينها ولا لزمن بعينه بل يصلح كذلك لفرد بعينه في لحظة بعينهـا. ولـو تعارضت رؤاه مع رسـوم الشّريعة بشـكل اسـتثنائى تفرضه الأحـوال فـإن لهـا الأولويّـة على هذه الرُّسـوم، فذنـوب الإنسـان الكامل مغفورة مقدّماً.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ۝٣﴾ [النصر، ١١٠: ١-٣].

# الباب الخامس عشر
# الباب الضيق

﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً ۝ ﴾

[الشرح، ٩٤: ٥– ٦]

وتُنَاظِر قاعـدة المثلـث المَقلـوب «انشراح الصَّـدر»، والتـي ترتبط في القرآن عادة بالإسلام مثل الآية الكريمة ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ... ﴾ [الأنعام، ٦: ١٢٥]، ولو انقلب المثلث الأسفل في خاتم سليمان فقـد يُفسَّرَ بأنـه يناظر نقيض المسـلم، أي الكافر، فالانقباضـة نحو الرَّأس سـوف تناظر ضيق الصَّـدر الَّذي يصيب من يلاحى القـدَر كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء[٤٥]، في حـين سـترمز قاعـدة المثلث إلى الخوار والسّـلبيَّة تجاه العالم الخارجي.

وقـد ذكرنـا فيما سـلف أن الإنسـان الدُّنيوي ليس بشـيء بالنِّسـبة إلى الإنسان الكامل، إلَّا أنه من الممكن دائماً أن يصل الإنسان الدُّنيوي إلى مُلكِ الدُّنيـا بمعنىً نسـبيٍّ بأن يجعل من الشّـعائر وعاءً للنّفـوذ الرّوحي، ويعلم بعلـم اليَقِين أموراً مـن أسرار الطَّبيعة ومن الـمَعـاني العلويّة التي يُطعمها لرعايـاه. والحَقّ إن هذه هي الوظائف الضَّروريّة للإنسـان في عالم الظّاهر، لكـن الكافـر عاجز عنهـا فضلاً عـن أنه يفعل عكسـها تمامـاً، فينغلق على

---

(٤٥) وقد اتخذ ذلك الميل صورة منظورة في العالم الخارجي ببناء برج بابل.

النّـور الرّوحي حتى يقول إن رعاياه لا قيمة لهم إلَّا التُّراب الَّذي يعيشـون عليه، وهكذا يصل إلى منتهى اللاإنسـانيّة، ويتجرَّد من كافَّة السِّـمات التي تميِّز جنسـه، ويشـبه طائراً بلا أجنحة أو سمكة بلا زعانف، فليس إلَّا أَحَطّ الكائنات، وهو كما تقول الآية الكريمة ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥﴾ [التين، ٩٥: ٤-٥].

ويتبدَّى الاختلاف الأقصى بين الإنسـان الكامل والإنسان الكافر على عدّة نواحٍ ، فحيث إن الإنسـان الكامل أَشَـدُّ وَعياً بالحقائق العليَّة أكثر من أَيـيّ مَخْلوق كان على الأرض فإنه سـلبي تجاههم وأعمق تفكُّـراً منهم، أما الكافـر فـلا وعي عنده بهذه الحقائـق حتى إنه يذهـب إلى إنكارها[٤٦] ولذا كان أشَـدّ النّـاس اسـتكباراً في الأرض وأقلّ الأشـياء صلاحية لأن يكون رمـزاً، ويمكن القول إن الكافر هو أقلّ مخلوقات الأرض حظاً من الحقيقة حتـى ليـكاد يكون على شـفا العَدَم، ويـسري ذلك على كلّ أعمالـه، ففنونه وعلومه قائمة على افتراض أن العالم مسـتقل عن المصير، أو أن الدُّنيا تغني عـن الآخرة، وأن الأشـياء التي يحفل بهـا العالم حقائق قائمـة بذاتها بِغَضّ النَّظَـر عن أنها رُموز، والحَـقّ إنه هو وأعماله لا بد أن يظلّا رموزاً بدرجة ما وإلَّا ما وُجِدَت بتاتاً، ولكن رمزيتَّهما أو قدرتهما على تذكُّر الحَقائق الأسمى تافهة للغاية، حتى إنها لتبدو ظلالاً شـاحبة لها على وشـك التّلاشي، فحين تبلـغ أمَّـة درجة بعينها من الكُفر تتلاشـى على الدَّوام كما تلاشَـت أمم من قبلها مثل قوم عادٍ وثَمودٍ وغيرهما مما ذكر الكتاب الحكيم، وقل مثل ذلك عـن الإنسـانية برمتها، إذ قيل إنها سـتفنى لو بلغت أقـصى حَدٍّ للكُفر تحت

---

(٤٦) وتعني كلمة "كافر" من أنكر الدين وكذَّبه.

حكـم المَسِـيح الدَّجّـال في نهاية العصر الحـالي إلّا القِلَّة[٤٧] التـي قُدِّرَ لها أن تعيش تحت حكم المَسِيح عليه السّلام.

وفيما كان الإنسان الكامل فريد في مظهره الأرضي فإن الكافر ينحو إلى التَّشَبُّه بالآخرين من نوعه، والواقع أن ما قيل عن الإنسان الدُّنيَوي السّاقط يُشَـاكل ما قيل عـن الكافر، حتى نميِّزه عن الإنسـان الكامـل وهو نقيضه التَّـامّ، وحيث إنه أبعد ما يكون عن أي ذكـر رأسي للحَقائق الرُّوحيّة، فإن كلّ ما فيه اسـتعارة أفقيّة من أشـياء في مقامه، ولـذا كان بعيداً عن التِّلقائيَّة والأصالة حتى لا يجوز اعتباره هُوَيَّةٍ من أيّ نوع كان خارج السّواد الأعظم مـن أمثاله[٤٨]. فقد كفَّ عن أن يكون الكـون الأصغر بعد أن امتصَّهُ العالم المحيـط به، وليس إلَّا ممثِّـلاً للجنس البَشَريّ في أحوال تدهوره وتفسُّـخِه، ويَتَبَدَّى في وظيفته هذه نقيضاً للإنسـان الكامل حتى من حيث الحريَّة التي يدَّعيها، فالإنسـان الكامل أكثر حريَّة بشـكل نسبي لمجرَّد تسليمه بأنه عبدٌ وليس حراً. وفي حين يَدَّعِي الكافر الحريَّة والاسـتقلال عن اللاَّهوت فهو أقـلّ المَخلوقات حريَّة وأكثرهم عُرضَةً على الاقتراب من هاوية اللاَّشَـيئيَّة برفضه أن يكون مثالاً، فإن من يتوهَّم أنه من الحقائق الأعلى ليس إلَّا مثالاً لوهـمٍ وإلَّا لم يكـن شـيئاً، كما أنه يجعل مـن ذاته عائقاً بدلاً من أن يتوسَّـط

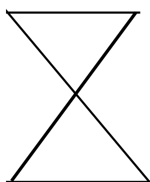
(٤٧) وقد قيل إن هذه القلة تشبه في مصيرها مصائر قوم نوحٍ ولوطٍ عليهما السلام، وسوف يكونون من صحبة المهدي، وهم المختارون الذين أشار إليهم المسيح عليه السلام في وصفه لأيام الدمار قبل مجيئه الثاني "ولو لم تقصّر تلك الأيام لم يخلص جسدٌ، لكن لأجل المختارين تُقَصَّرُ تلك الأيام". متى ٢٣: ٢٤

(٤٨) وقد تجلى ذلك واقعيا في حقل "الثقافة" و"الفنون الجميلة"، والتي أصبحت مطبخا يأكل كل ما يطبخ، ولا يبالي إذا كان "الآخرين" يعافون طهيه. المترجم.

بالخير بين هذا العالَم والعالَم الآخر.

والزَّمن شـأنه شـأن كلّ تَجَلِّيات ذي الجَلال والإكرام، والَّذي انعكس نـوره على المرحلتـين المتتاليتين المتكاملتين، فكلّ مـا كان في قبضة الزَّمَن لا بد أن ينتهي بعـد حين، وهما مرحلتا الميلاد والموت، أو التوهُّج والخُفوت، أو النَّماء والضُّمور، أو الانبسـاط والانقبـاض. وأوَّل هاتين المرحلتين تجلٍّ للمحيـي والجَميـل والمُنْعِـم، وفيهـا تَخضَـع المَخلوقات سـواء أكانت فرداً أم أمـة أم عالمـاً بكامله للعبوديّة له عِزّ شـأنه، وهذه هـي العلاقة التي يعبِّر عنها خاتم سـليمان في مثلثه الأدنى الَّذي يمثِّل الخَلق في المرحلة الأوَّلانيّة، ولكنها في مرحلة التّكامل أكثر خضوعاً للجَلال الملكي في اسمه «المُمِيت» جلَّ شـأنه، والَّذي يُفنى كلّ شـيء إلا ذاته العليّة، والكافر خاضع في دورة حياتـه القصـيرة[٤٩] للحـال الأوَّل ثم الحال الثـاني على التّـوالي، وهو ممثِّل لإنسانيَّة أطول منه عمراً، وقد عاش في مرحلة من مراحل تَفَسُّخِها.

ويتبـع فَناء نفسٍ في الرحلة الروحية ميلادُ نفسٍ أولانيةٍ تشـاكل بكارة العـالم بعد الفيضان، لكـن العالم في قهر الزّمن ولا مناص من أن ينحط مرة أخرى، في حين أن النّفس الأوَّلانية معصومة من الفَسـاد،



ففناء السالك ينقله إلى جَنّة القَلْب التي تعلو على الزَّمن، وتنعكـس في إطار الزَّمن مراحل الجَـلال والجَمال في الموت والميلاد، وفي البّسْـط والقَبض، تقفـو بعضها أثر بعضٍ، أما

(٤٩) يمثل كل زوج دورة في الزمن، وهكذا يتكون الزمن من دورات داخل دورات لا تُحصى، فحتى فعل التنفس أحد تلك الدورات، ويجوز أن يكون شعيرة لذكرِ ذو الجلال والإكرام، فاللحظة التي نشهق فيها النَفَسَ تجلٍ لرضوانه واللحظة التي نزفره فيها تجلٍ لتعاليه عز وجل.

خـارج الزَّمن فتنعكس في حالات متكاملـة كما لو كانت متزامنة في حاضر سرمـدي بـلا ماضٍ ولا مسـتقبل، وتفنـى النّفـس الكاملة في جَنّـة القَلْب وتولـد فيها بلا كلل، والخلود هو دوام المَزج والتّداخل بين الموت والميلاد، وهـو إنـكار للمـوت، وهو الَّـذي اتّخذت منه شـجرة الخُلد وعـين الخلود اسـمهما، وتُسـمَّى العين كذلك نبع الشّـباب ونبع الحياة، وهذه هي الحياة التي أشـار إليها المَسِـيح عليه السّـلام في قوله «أدخلوا من البـاب الضَّيِّق، لأنه واسـع الباب ورحـب الطَّريق الَّـذي يؤدِّى إلى الهَـلاك، وكثيرون هم الَّذيـن يدخلون منه، ما أضيق الباب وأكرب الطَّريق الَّذي يؤدِّي إلى الحياة، وقليلـون هـم الَّذين يجدونه» متى ١٣:٧-١٤، وفي سـياق الحديـث عن المثلث المعتدل الَّذي طَبَّقناه على حال الكافر تواً نضيف أن له معنى طَيِّب، فلو تحرَّك المثلثـان بحيث تلتقي رأسـاهما لكانا رمزاً لجَنَّتي الإنسـان الكامل، ولكانت رأس المثلث المَقلوب تناظر الفناء الَّذي يدخل بعده السّالك إلى جَنّة القَلْب، وقد يُفسِّر على أنه البـاب الضَّيِّق[٥٠]، الَّذي يمثِّل ضيقه «العُسْر» المذكور في الآية الكريمة بصدر الباب، ولو أن الشّكل قد اتَّخذ أسمى معانية فإن رأس المثلث الأسفل سوف تمثِّل الفَناء الكامل في عَيْن اليَقِين، فهناك نقطة واحدة في طريق السّـالك عند التقاء رأسى المثلثين تناظر لقائَه باليَقِين الواحد جَلَّ شأنه وترمز إلى أحديّته سبحانه، وسيناظر الاتساع العُلوى للمثلث الأعلى النِّعم اللَّانهائيّة للحَقّ جَلَّ وعَلا، والتي لا مَطال لها إلَّا بالفقر الكامل. ولو مثَّلنـا «المميـت» جَلَّ جَلاله برأس المثلث الأعلى فسـوف ترمـز قاعدته إلى

(٥٠) ولو كان المثلث المعتدل في معناه الخبيث يذكرنا ببرج بابل فإن جانبه الطيب يتمثل في أهرام مصر التي كانت مقابراً.

«المحيي» عَزَّ وَجَلّ، ولكن حيث إن الاتِّساع لا يَتَّجه إلى الخلق فسوف يرمز إلى «الحَّـيّ» سـبحانه، وهكذا يكون الشّـكل تصويراً لكلمات المَسِـيح عليه السّـلام «من خسر حياته من أجلي سـيجدها»، ولنقتبس هنا حديثاً قدسـيّاً يُسند إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، من طلبنّي وَجَدني، ومن وجَدَني عرفنـي، ومن عرفني أحبَّني، ومن أحبَّنـي أحببته، ومن أحببته قتلته، ومن قتلته فعليَّ دِيَّته، ومن عليَّ دِيَّته فأنا ديته.

## الباب السادس عشر
## البـيعة

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً﴾ [الفتح، ٤٨: ١٠]

تتكون دوحة الإنسان الكامل من ملوك الأرض وأهل الله جَلّ وعَلا من المباركين، وتنقسم إلى فرعين، أحدهما خفي يُسَمَّى أعضاؤه «أفرادا» ويرأسهم الخضر عليه السّلام، وينتمى إلى الفرع الثّانى «الأقطاب» وهم الأولياء والقِدّيسون الَّذين يرأسهم الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام، ووظيفتهم الثّبات في الأرض كأوتاد لأجيالهم.

وليس الإنسان الدُّنيوي شيئاً في الزَّمن الرّاهن بمقاييس هاتين السُّلالاتين الملكيَّتين، ولا هو يملك أن يكون من أحدهما، وقد كانت خلات النّقص الإنساني فيما خلى مجرَّد حالات شاذّة، فيما أصبحت حاليّاً طبيعيّة في تواترها، ويبدو الأمر كما لو أن جنساً إنسانيّاً جديداً قد تطوَّر على مسار العصور بخصائل تخصُّه تختلف عن العادات الإنسانيَّة المعروفة، وهكذا لا يكفي أن يرغب الدُّنيوي في أن يعود إلى الحال الأوَّلاني بل عليه أن يؤمن بالحَقّ إيماناً قاطعاً، فقد تحوَّل التغيُّر القديم لطبيعة جنس الإنسان إلى ما يشبه تغيُّر الجنس ذاته في زمننا، ولو تُرك الإنسان الدُّنيوي لنفسه فإن تطلُّعه إلى أن يكون إنساناً كاملاً سيكون بمثابة أن تثمر شجرةٌ ثماراً غير

فاكهتهـا، ولا بـد أن يكون باقياً في نفس الإنسـان المنحط بـادرة من الملكيّة القديمة للإنسـانيّة حتى يأمل في خطو الطّريق، وغالباً ما يُمثِّل هذه البادرة أن تتبنّـاه طائفة من فضلاء الزّمان القديم، وعادة ما يُسبَغُ على المريد اسـماً جديـداً يُناظر طبيعته الحَقَّـة، ويذكره دوماً بمثاله ويهديـه إليه، ولن يملك المنحـط بـدون هذا التَّبَنِّي أن يتغلَّب على الآثار التي ورثها عن أسـلافه من السِفْلَة والدهمـاء، لكنه لو تغيَّر لأصبح له أسـلافٌ أولانيِّـين جدداً، ولذا كانت الحكايا القديمة تقول عن السّالك إنه من سلالة شريفة.

وتُعـرفُ هـذه الذريَّـة في الأديان عموماً، وتُسَـمَّى في الإسـلام باسـم «السِّلسـلة»، ويعني تَبَنِّـي الطّائفة للمريد الدُّنيوي أنه قد ارتبط بالسِّلسـلة الشّريفـة، ويتحقَّـق هـذا الارتبـاط «بالعهـد» أو «البيعـة» بينه وبين شـيخ الطّائفـة بصفته ممثِّل الأوليـاء، ويُرمَزُ إليها بالتّصافـح بالأيدى، وهذه هي شـعيرة البيعة التي أشـارت إليها الآية الكريمة في صدر سـورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ [الفتح، ٤٨: ١] ، وتشـير السّـورة الكريمة ذاتها إلى أوَّل بيعـة للنَّبي عليه الصّلاة والسّـلام في صحابتـه رضي الله عنهم، ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾ الفتح، ٤٨: ١٨]

وتتفـرَّع السِّلسـلة الرّوحيَّـة في كلّ دين، وكلّ فرع من فروع السِّلسـلة في الإسـلام هي طرقٌ إلى الحقيقة تُسَـمَّى كل منها «طريقة»، وتمثِّلها شكليّاً شجرة مرسوم عليها «بيان الطّرق»، ونرى تحت أساس الشَّجَرة اسم «الله» عَـزَّ وَجَـلّ ثـم جبريل عليه السـلام ثم محمَّد ﷺ ثـم الخلفـاء الأربعة رضِيَ

الله عنهـم، وتتفـرَّع أخـيراً إلى الطّـرق الصّوفيَّة التـي تمثِّل فروع السِّلسـلة الإسـلاميّة، فـكلّ عضو فيها حلقة من السِّلسـلة التي بـدأت بمحمّد عليه الصّلاة والسّـلام، وهنا يكمن السَّـبَب العُلوي في الصَّلاة على آل الرَّسول ﷺ، فدوحة سـلالته الرُّوحيّة هي آلُهُ على الحقيقة، وقرابتهم أعلى مقاماً من مجرَّد قرابة الدَّم، وحين يأخذ شـيخ طريقـة أو أحد مقدِّموه عهداً على مريد ليربطوه بالسِّلسلة الشّريفة يضع تحت تصرُّفه كل المَوارد الرُّوحيَّة للطّريقة، ولكـن ليـس هناك من يمكن أن يهـدي غيره إلى مقام أعلى مـن مقامه، ولا يملك له إلَّا عِلْم اليَقِين، وتصبح الطّريقة هكذا كما لو كانت ثابتة سـاكنة، إلَّا أن أعضاءها يسـتقون البركة من السِّلسـلة(٥١)، ولكن لو رغب المرء في المزيد فلا بد أن يبحث عن «مُرْشِد روحي»(٥٢) قد بلغ مقام عَيْن اليَقِين على الأقَلّ، ويستطيع هداية غيره إلى المقام ذاته، ويكاد يستحيل بدون مُرْشِد أن يجد المريد طريقاً، فلا يملك أن يَهدي ذاته إلَّا بعَيْن اليَقِين.

---

(٥١) وتسمى الطريقة الثابتة في الإسلام "طريقة تبرُّك" أو "طريقة تبريك"، راجع الشيخ عيسى نور الدين "الوحدة المتعالية للأديان"، باب "تعالي الجوانية وكليتها"، تراث واحد، قيد الطبع.

(٥٢) وتسمى الطريقة التي ترشد المريدين "طريقة سلوك" أو "طريقة تربية" بمدى ما تحض مريديها وتعينهم على سلوك الطريق الروحاني.

## الباب السابع عشر
## رحلة الشتاء

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ الفيل[٥٣].

﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ قريش.

بنى أبرهة ملك اليمن معبداً فاخراً ليجعله مناطاً جديداً للحَجّ حتى يَجتذب إليه قوافل الحَجيج التي تسافر إلى الكعبة في مكة، وقد أرسلت قريش إليه من يحبط عمله بتدنيس المعبد الجديد، فانطلق أبرهة على فيل في مقدمة جيشه إلى مكَّة حتّى يَهْدِم الكعبة، ولكن البيت الحرام قد سلم بمعجزة، فقد ظهرت في السّماء أبابيل طيور أبادتهم بأحجار من جهنّم كلٌّ منها عليه اسم ضحيَّته.

وتشاكل الكعبة القَلْب، والحجيج يشاكلون البَصائر التي تنتمي إلى حافّة جَنّة القَلْب، وقد كانت محاولة أبرهة إغراءهم عن مَكَّة بمعبد زائف أشبه بإغراء الشيطان لآدم وحواء بشجرة حياة زائفة، ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ

(٥٣) ويقول التفسير "وقد كانت هاتان السورتان في مصحف أبي تبدوان كسورة واحدة، وقد اعتاد بعض كبراء الإخوة أن يقرأ السورتين معا في الركعة الثانية من صلاة المغرب".

الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه، ٢٠: ١٢٠].

وقد كانت قريش هي سادنة الكعبة، وهم أشرف قبائل العرب وهم أهل البصائر الَّذين تبوَّؤا موضعهم الصّحيح، فبدون نور البَصيرة في مركز النّفس فلن يملك أحد أن يتطلَّع إلى الحَقّ.

ويجاهد كلّ مسلم في حرب مع الشَّيطان، أما «أهل اليَمِين» فإن حربهم لِمَاماً بفترات هدنة ومداورات شَتّى، لكن الشَّيْطَان يعلم أن الدُّنيَوِيِّين في قبضته إلى حَدٍّ كبير، وليس فيهم إيمان حَقّ بالرَّحمة الرَّبّانيّة، ولا يملك أن يرى أنهم سيفلتون من قبضته في الحياة الآخرة، فالله سبحانه على كلّ شيء قدير، أما «السّابقون» فقد رأى أنهم قد ألقوا بسلطانه في حاضرهم وشنُّوا الحرب عليه في حياضه، والنتيجة قصاص مريع، وهنا يكمن أعظم خَطَر في طريق الرُّوح على من ليس مؤهَّلاً لسلوكها. فلا يملك السّالك أن ينتصر على «أصحاب الفيل» بقواه الإنسانيَّة بل بالقُوى الرَّبّانيّة فحسب، وإقامة الشّعائر وسائل لهذه القُوى شريطة نقاء ضمير السّالك، أما الَّذين يدخلون الطّريقة فخراً أو طموحاً أو غير ذلك من الدَّنس فلن تحضر قُوَى السَّماء شعائرهم، ولا مناص من أن ينهزموا ويسقطوا أسفل من ذي قبل في حوض الشّيطان. أما من يدخل الطّريق بمحبّة الله جَلَّ جَلاله ويتطلَّع تلقائيّاً إلى نوره عَزَّ وَجَلّ فهو كالزَّرع الَّذي يَتَّجِه إلى نور الشّمس، ولن يكون أمامه عائق في كدحه نحو السّماء، وسيكون قادراً على التّشَبُّع بالشّعائر التي يقيمها تماماً، فيحوِّلها إلى أبابيل من الطّيور التي أبادت «أصحاب الفيل»، ويقول التّفسير «إن الأفكار والأذكار تتوهَّج بنور الرُّوح الأبيض».

وترمز رحلة الشِّتاء إلى المرحلة الأولى من رحلة السّالك الرُّوحيّة حينما تَميل الرُّوح نحو الأرض، ويستطيع السّالك أن يتبوَّأ في قربها مقام الإنسان الكامـل، وهذه المرحلة «أفقيّة» من حيث إنها تتحقَّق على مسـتوى الوجود الأرضي، والتّصاعد هـو باقي الطّريق الَّذي يتم في رحلة الصَّيف[٥٤] حينما ترتفع الشّمس إلى غاية سَمْتِها في أعالي السَّماء.

وقد قال الرّسـول عليه الصّلاة والسّـلام اطلبوا العلم ولو في الصِّين، وهناك أساطيراً وقصصاً في أنحاء العالم يكمن فيها علم أسرار رحلتا الشِّتاء والصَّيف تحت ظاهر سـاذج، فالشَّكل يختلف باختلاف الجانب الَّذي يعبّر عنـه. وتوصف رحلة الشِّـتاء بأنها مثل الهُبوط إلى باطـن الأرض بحثاً عن الذَّهَب والفِضَّة والجَواهر النّفيسـة، ويُشـاكل هذا الكنـز البَصائر المفكرة، ويقال إنه في حوزة الأقزام الشَّـيطانيين اللِّئام الَّذين يتعيَّن على السّـالك أن يمكر بهم، أو هي في حراسـة وحوش ضارية لا بد أن تُبادَ قبل أن يسـتعيد السَّـالك كنزه المسروق، وتـروي القصص أحيانـاً أن البَطَل يصاب إصابة قاتلـة وهـو يَقْتُل أعداءه ويَمـوت هو الآخر بعد أن أحـرز النَّصر، وتروي أحيانـاً أخـرى أن البَطَل قد اسـتعاد كنزه واسـتطاع أن يتـزوَّج بأميرة وقع في غرامهـا. وترمـز تدخـلات الجنيّـة الطيِّبـة وعطاياها إلى أن السَّـالك لا يملك الغلبة على العَدوّ بنفسـه، وهذه العَطايا هي الذِّكر الَّذي يُلَقِّنُه الشَّيخ لُمريديه، وليسـت رحلة الشِّـتاء إلَّا «الجهاد الأكبر» أو «جهاد النّفس»، فقد قال الرَّسـول عليه الصّلاة والسّـلام بعد فتح مَكَّة عُدْنا من الجِهاد الأصغر

(٥٤) وتناظر رحلتا الشتاء والصيف في الدين اليوناني الروماني القديم "الأسرار الصغرى" و"الأسرار الكبرى".

إلى الجِهاد الأكبر.

وعادة ما تساند رمزيّة غيرها، فهناك أسطورة يونانيّة عن أميرة جميلة ترمز إلى الرُّوح، وتُسمَّى أتلانتا، وكانت أسرع في الجري من أي رجل، وقد قطعت عهداً ألَّا تتزوج إلَّا من يَسبقها، ويرمز الأمير هيبومينيس إلى السَّالك الَّذي استطاع أن يَسْبِقها بمعونة ثلاث تفاحّات ذهبيَّة من الشَّجرة التي تنمو في مركز حديقة هيسبيريديس، وقد أُرسِلَت إليه استجابة لصلواته، وألقى أمام الأميرة في السِّباق تُفَّاحة بعد أخرى، فكانت الأميرة تتوقَّف لتلتقط الثَّمرة السَّماويّة حتى سَبَقَها الأمير. وقد جاء ذكر رحلة الشِّتاء في سورة الكهف ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ [الكهف، ١٨: ٦٠]، وأحياناً ما تستبدل الرمزيَّة البحر الفُرات الَّذي يرمز إلى السَّماء بمائه العَذب بسماء تحمل سحاباً مُحَمَّلاً بالمَطَر العَذْب، ويكون التقاء المائَيْن حينئذ على سطح الماء المالح في هذه الدُّنيا. وكذلك جاء في قِصَّة صينيّة[٥٥] تَصِف السَّالك بأنه سَمَكَة تسبح إلى أعلى في المياه السفليّة، وحينما تصل السَّمَكَة إلى سطح الماء يَنْقَضّ عليها من بين السَّحاب طائر يرمز إلى الرُّوح، وتَتَوَحَّد السَّمَكَة بالطَّائِر لِيَصِيرَا كياناً واحداً يصبح تنيناً يرمز جناحاه إلى طبيعتا القِدِّيس السّماويَّة والأرضيَّة. وقد ذكر القرآن الحكيم في سورة الأنعام ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام، ٦: ٥٩] وكما يقرأ الله تعالى في الكتاب المبين غامر نعمائه ودوام بقائه عَزَّ وَجَلّ يقرأ الإنسان الكامل في

(٥٥) راجع Matgioi, La Voie Metaphysique, p. 49.

مستواه النِّسبى كَمَال ذاته، وعليه أن يعي أَوّلاً كُلّ عناصر نفسه بلا استثناء قبـل أن يَصِير كوناً أصغر بالكامل. وتتمثَّل معرفة النّفس في القصص التي تحكـى عن أمير يبغي الزَّواج بأمـيرة بِمُهِمَّة عويصة قبل أن يتزوَّج بها، مثل أن يَعُـدَّ النّحـل في خلية أو يعدَّ حبّات الرِّمال على شـاطيء البَحْر، ويَكْمُن تفسـير ثانوي آخر لرحلة الشِّتاء في الحديث النَّـبَوي الشّريف الَّذي اقتبساه سـلفاً «من عرف نفسـه فقد عرف رَبّه»، فمعرفة النّفس تجعل السَّالك يرى رَبّه بعَيْن اليَقِين.

# الباب الثامن عشر
# رحلة الصيف

﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾﴾ [الفجر، ٨٩: ٢٧ -٣٠]

تعني صفة «العبد» الفَناء، ولذا يُسَمَّى الَّذين ارتقوا إلى جَنّة القَلْب «عِبَادا» لله عَزَّ وَجَلّ، ومن ثم فنوا في الذّات العليّة، وقد جاء ذلك المعنى بأَسْمَى معانيه في سورة الإنسان، حيث يتجلَّى الفارق بين «عباد الله» و«الأبرار» الَّذين انْطَوَت قلوبهم على انعكاسات الصِّفات الرَّبّانيّة، وبين الَّذين وصلوا إلى الحَقّ سبحانه، وهم الَّذين ارتقوا أوَّل درجات سُلَّم يعقوب عليه السَّلام، وهو المِحْوَر النّورانيّ للكون المخلوق بأجمعه، ويَمْتَدّ من هذا العالم إلى مَشارف العالم اللامخلوق، ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴿٥﴾ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴿٦﴾﴾ [الإنسان، ٧٦: ٥-٦] ويقول التّفسير «والأبرار هم السُّعَداء الَّذين عَبَروا إلى ما وراء حُجُبِ الفَضائِل وصالح الأعمال، حيث تَلُفُّهم حجب الصِّفات حتى نبع جَنّة الذّات والخُلود، وهم السَّالِكون في منتصف طريقهم، يَشْرَبون من كأس محبَّة الصِّفات وجَمالها، ومزاجها من كافورِ نَبْع الخُلود، ويشتمل مذاقها على برد اليَقِين وبياض النّور ومَسَرّة القَلْب الَّذي احترق في نار الشَّوق، والكافور نَبْع لعباده المختارين سبحانه، وهم أهل «وحدانيَّة الذّات» ومحبَّتهم هي مياه النَّبْع بلا صفات، بمدى ما لا يُفَرِّقون بين القَهْر

والمَحَبَّـة، ولا بين الشَّـفَقَة والقَسْـوَة، ولا بـين الرَّخَاء والبُؤس، فمحبَّتهم تحيـا بـين الألطاف والمِحَن، وتترى سـعادتهم في خير الجـزاء والابتلاء على السَّـواء، أما الأبـرار الَّذين يُحِبّون تجَلّيَات العَاطِـي الوَهّاب الوَدُود الرَّحِيم فإنَّهـم كذلك يُحِبُّون تَجَلّيات القَابِض المُذِلّ المُنْتَقِم دون أن تَتَهافَت مَحَبّتهم، ﴿عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً﴾، [56] فهم أنفسـهم الينابيع التي تتفجـر تفجـيرا بالمحبة، فهنا حيـث لا ثنوية ولا غيريـة وإن لم تكن كافوراً نتيجة ظلام حُجُبِ الأنوية والثنوية».

ويذكـر القـرآن الكريـم أن الأبرار يُسـقون مـن رحيق مختوم مـن جَنّة الـذات، ولكـن المـزاج يأتى فيها من جانـب آخر من العين الأسـمى، فهم ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَامُهُ مِسْكٌ ۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطففون، ٨٣: ٢٥- ٢٨].

أما المقربون الَّذين ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ۝١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ۝١٩﴾ [الواقعة، ٥٦: ١٧- ١٩]، فيقـول المفسِّرُ «إنَّهـم لا يَفْقِدون التَّمييـز ولا الذَّكاء بِـشُرْب الخَمر ولا هم يغرقـون فيها وعيهم، فهم «عباد الله» أهل الصَّحو الَّذين لم تحجبهم الذّات عن الصِّفات، وإلَّا أمسـك بهم السُّكْر وأغْرَقَهُم الحال»، وليسوا مثل عِبَاد

---

(٥٦) وتقول السورة الكريمة بعد ذلك ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ۝١١ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً ۝١٢ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَرِيراً ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ۝١٥ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيراً ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ۝١٧ عَيْناً فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ۝١٨﴾ [الإنسان، ٧٦: ١١-١٨] ويقول البعض إنها هي العين الأسمى في إهاب الحياة، فهي حياة الأحياء، ومن يشرب منها يخلد مع "الوجود الحقاني"، والحق إن الدم الدافئ لن يجري هوناً في الشرايين إلا بفضل جريان عين السلسبيل الهادئ في جنة الذات.

الله حيث إنَّهم مُقَرَّبون ولا زالوا يُفَرِّقون بين الصِّفات، والحَقّ إنَّ الأبرار يُفَرِّقون بينها لأنَّهم ليسوا على نور يَكْفِي لِكَي يَروا أنَّ الصِّفاتَ حُجُبٌ بينهم وبين الذّات، أما المُقَرَّبون فَهُمْ على الجانب الآخر لهذه الحُجُب، ولذا يمكن القَوْل إنَّهم يَرون أَبْهَى جَلال للجليل وأقصى جَمال للجَمِيل، ولا تحجب أحدهما الآخرى كحال الأبرار، أي إنَّهم لا يَتَحَدَّثون عن شَيْء مثل «الغَيْر» حيث إنهم عَبَروا إلى ما وراء كُلّ غَيْرِيَّة.

ويُسَمَّى كافور عِبَاد الله وفنائهم وسكرهم «بالتَّسنيم» بالنِّسبة إلى المُقَرَّبين وخُلودهم بعد الفَناء وصَحوهم، ويشرب المُقَرَّبون كذلك كافوراً من نَبْع تَسنيم، وهم جميعاً مِن المُحِبِّين.

ويمكن قول إنَّ الأبرار كُلَّما أداروا وجوههم نحو الواحد الحَقّ تَضَمَّخَت أفكارهم وأذكارهم بالكافور، وكُلَّما أداروا وجوههم إلى الحَقّ الباقي الَّذي لا يَنْبُو عنه شَيْء فإنَّ أفكارهم وأذكارهم تَتَضَوَّعُ بالمِسْك من عَيْنِ تَسْنيم ونَهْر الكَوْثَر، ويَعْلَمون أنه لا يستطيع أحدٌ أن يَشْرب مِن عَيْن تَسْنِيم إلَّا لو شَرِبَ مِن الكافور أَوَّلاً.

ونَجِدُ أنَّ الفارق بين الأبرار والمُقَرَّبين يَفْتَقِدُ عامِلاً مُشْتَرَكاً، وقد صَوَّرَته سورة النّور، ﴿ اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور، ٢٤: ٣٥].

والمِشْكاة هي الأرض، أي هذه الدُّنيا، وهي النّفس في الكون الأصغر، التي هي مظلمة بطبيعتها، وتشاكل أَوَّل مرحلة من رحلة السَّالك بوضع المصباح بلا زيت في المِشْكاة، وتَبْرُقُ الزُّجاجة كما يِبْرُقُ كَوْكَب دُرِّي عندما يَغْمُرُه النّور، وهو القَلْب، وعندئذٍ تُضِيء النّفس بنور عَيْن اليَقِين. وتشاكل المرحلة الثانية من رحلة السَّالك امْتِلاء المِصْبَاح بِزَيْت الزَّيْتُون، وهو الرُّوح ذاتها لا شَرقيّة ولا غَربيّة نظراً لِـمَركَزِيَّتها وتَعاليها، وَشَجَرة الزَّيتون وَشَجَرة السِّدر التي تَقُوم على أبعد الـمَشارِف هما مظهر للنَّخلة، «فنواة الفَرْدِيَّة والأنوية باقية في كُلّ منها» كما يقول التّفسير، أما «نور على نور» فترمز إلى نور الزُّجاجة ونور الزَّيْت، أو هما نور قَمَر القَلْب ونور شَمْس الرُّوح، وهذا هو حال الأبرار، إلَّا أنَّ الزَّيْت ينتظر الشُّعْلَة التي تُوقِدُه. ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور، ٢٤:٣٥]

تم بحمد الله

# كشاف الأعلام والمصطلحات

ويرى الرواقيون أن بعد احتراق العالم تولد نفوس جديدة ببكارتها لأن العـالم يمر بدورات كونية يجدد فيها ذاتـه، والأرجح أن هذا خطأ في الفكر عموما وليس في الرواقية فحسب، فعند الأورفية والفيثاغورية وغيرهما في تاريخ الفكر يقولون إن النّفس حين تفنى تلد نفسا جديدة.


THE ROYAL ISLAMIC STRATEGIC STUDIES CENTRE (R.I.S.S.C) (F.2007)


بسم الله الرحمن الرحيم
رطب
RUTAB

كتاب اليقين

للشيخ أبو بكر سراج الدين



MaبدأBDA

٢٨